



كلارا زتكين

مشكل المثقفين

تقديم:

يقدم موقع 8 مارس الثورة، أحد كتابات كلارا زتكين المتميزة وهو تقرير تقدمت به أمام المؤتمر الخامس للأمم المتحدة الشيوعية، المنعقد في 7 يوليو 1924 (من محضر المؤتمر)، ويطيب لنا أن نقدم ترجمة لخطابها هذا، حيث نكتشف من خلال هذا النص سعة ثقافة وعمق فكر هذه المناضلة الثورية، وهي تعالج أحد المواضيع المعقدة والشائكة، ويتعلق الأمر هنا بمشكل المثقفين وتناقضاتهم، وتعقيدات وضعهم في ظل نمط الإنتاج الرأسمالي المتطور وأزماته المستمرة، حيث يتخبط المثقفون كفئة اجتماعية ويتدحرجون في مواقفهم وأوضاعهم الطبقية بين البورجوازية والبروليتاريا صاحبة المشروع المجتمعي الجديد.

٨ مارس الثورة

مشورات المركز الماركسي - اللينيني للدراسات والأبحاث والتكوين

المحاور

٦ / ١

- 6 تقرير مقدم أمام المؤتمر الخامس للأمم المتحدة الشيوعية المنعقد في 7 يوليو 1924 (من محضر المؤتمر).....
- 7 يعيش المثقف في نمط إنتاج رأسمالي.....
- 9 المثقفون فئة اجتماعية خاصة.....
- 10 "عمال غير منتجين، أفواه عديمة الفائدة".....
- 13 الوضعية المتميزة للمثقفين.....

٦ / ٢

- 15 صراع المثقف ضد منافسة النساء وتحررهن.....
- 16 إصلاحات، مصالحة أو نداء للنوايا الحسنة للباطرونا.....
- 17 من إصلاحيين إلى أنصار الامبريالية.....
- 19 نزع ملكية البورجوازية المتوسطة والصغيرة وإفقار البروليتاريا.....

٦ / ٣

- 22 الفاشية و تسييس المثقفين
- 23 تسييس الأنتلجانسيا و النزعة السلمية للبورجوازية
- 24 الرأسمالية عقبة أمام تطور التقنيات و العلوم و الفنون
- 27 الثقافة البورجوازية أصبحت كاريكاتورا
- 29 فن مزيف يصبح تجارة

٦ / ٤

- 31 صراع المثقف ضد منافسة النساء و تحررهن - المدرسة البورجوازية، مدرسة للترويض وليست للتربية...
- 32 التحالف بين المثقفين و البروليتاريا الثورية

٦ / ٥

- 35 على المثقفين الشيوعيين تأسيس بنية فوقية جديدة
- 36 يجب على المثقفين الشيوعيين فتح نقاش مع الإيديولوجيا البورجوازية

- 37 تعليم مبادئ الشيوعية للعاملين في مجال الفكر.....
- 39 دور المثقفين ودور الحزب الشيوعي.....
- 40 دور المثقفين في ظل الاشتراكية
- 43 على الحزب الشيوعي أن يكون مثقفين بروليتاريين.....
- ٦ / ٦
- 45 بصدد التقييم الاجتماعي ومكافأة العمل.....
- 46 الأولوية للرفع من الثقافة العامة الشعبية.....
- 47 ماركس وتكوين الإنسان الجديد.....
- 48 الاشتراكية تمنح هدفا للأنتلجنسيا.....
- 49 الاشتراكية تحقق التركيب العضوي بين العمل والعلم والفن.....

تقرير مقدم أمام المؤتمر الخامس للأمم المتحدة الشيوعية

المنعقد في 7 يوليو 1924 (من محضر المؤتمر).

إننا نرى مشكل الأنتلجنسيا مطروحا في أعين عشرات الآلاف من النظرات الحائرة والمتلهفة، نسمعه في صرخات استغاثة عشرات الآلاف من الناس، الذين فقدوا مثالهم وقوة روحهم في مواجهة صعوبات الحياة، ولم يعودوا قادرين على فهم أن تجربتهم وآلامهم الشخصية تدخل ضمن كل تاريخي، ولا قادرين على استخراج القوة الضرورية من أجل العيش. لكن إلى جانب استغاثة المثقفين، التي تسببت في أزمة الأنتلجنسيا فإننا نرى انبثاق ظاهرة أخرى، وهي احتضار الثقافة البورجوازية.

إن أزمة الأنتلجنسيا هي أيضا أزمة عمل فكري في المجتمع البورجوازي، ونسجل وجود هذه الأزمة في جميع البلدان الرأسمالية، حقا ليست بنفس درجة الخطورة في جميع هذه الدول، وليس لها نفس الامتداد، لكنها متشابهة، بالنظر إلى معناها التاريخي وإلى تطورها، ونجدها أيضا في جميع الدول الاشتراكية السوفياتية، لأنه، حتى إذا كان النظام الرأسمالي بها قد تم قلبه، فإن تحول المجتمع نحو الشيوعية، ليس إلا في بدايته الأولى، ولا يتحقق إلا بثمن أسوأ الصعوبات.

إن مشكل الأنتلجنسيا في المجتمع البورجوازي يظهر على أنه في آخر المطاف أنه أزمة عمل فكري، بل هو أزمة الثقافة نفسها، فلم يعد المجتمع البورجوازي قادرا على الحفاظ على ثقافته الخاصة ولا على تطويرها، وهكذا يكف مشكل الأنتلجنسيا على أن يكون حصريا مشكل مثقفين أو مشكل المجتمع البورجوازي، لقد أصبح مشكل بروليتاريا التي تكمن مهمتها التاريخية، في السماح لكل القوى المنتجة والثقافية

بتحطيم الحواجز التي ينصبها النظام القائم في وجهها، وإذا أرادت البروليتاريا القيام بهذه المهمة، فعليها أولاً، أن تعي بشكل واضح العلاقات القائمة بين القوى المحددة للضرورة التاريخية.

إن أزمة الأنتلجنسيا وأزمة العمل الفكري، هي من أعراض الهزة العميقة للنظام الرأسمالي الذي يتعذر إصلاحه، وللدولة وللمجتمع، الذي يشكل هذا الاقتصاد قاعدتهما.

إن أزمة العمل الفكري ليست فقط علامة تؤشر على نهاية الرأسمالية، بل إنها جزء لا يتجزأ من الأزمة العامة التي تززع هذه الأخيرة. أما في الدول السوفياتية، فهي التعبير عن الهوة التي ما زالت قائمة، بين السلطة السياسية التي أصبحت في يد البروليتاريا، والتحولت التي عرفها الإنتاج، والبنية الإيديولوجية لمجتمع يشق طريقه نحو الشيوعية.

إجمالاً، فإن أزمة العمل الفكري وأزمة الأنتلجنسيا الناتجة عنها، تشير إلى وجود توتر قوي جداً بين سيرورة متقدمة جداً وتفكك النظام البورجوازي، وبين سيرورة خلق إنتاج وثقافة شيوعيتين.

يعيش المثقف في نمط إنتاج رأسمالي:

تكشف أزمة الأنتلجنسيا، أن التعارض بين العمل اليدوي والعمل الفكري، ليس هو الذي يحدد الوضعية الاقتصادية والموقع الاجتماعي للمثقفين، وأن الذين يظنون أن هذا التعارض هو المحدد لمصير المثقفين هم كثيرون، وأن موقع طبقة البروليتاريا يعطي الدليل على ذلك، هم خاطئون.

إن الاختلاف الاجتماعي بين بروليتاريين ومثقفين، يأتي من كون عمل هؤلاء الأخيرين لا يمكن أن تقوم به الآلة، ويحتاج إلى مدة طويلة في التكوين. إن العامل المثقف لا يمكن أن "يروض" بشكل أسرع من العامل اليدوي، من أجل تلبية حاجيات الاستغلال الرأسمالي. لكن

الاختلاف الاجتماعي الناتج عنها هو ثانوي ومؤقت، فهي تأتي في مرتبة أخيرة، إذا أخذنا بعين الاعتبار العناصر التي تعد في الحقيقة أصل التعارض بين العمل اليدوي والفكري.

إنه التناقض العدائي بين الملكية والكائن البشري، بين الرأسمال والعمل، أو باستعمال مفردات اجتماعية، بين الأغنياء والفقراء، بين المستغلين والمستغلين، التناقض العدائي الذي وجد تعبيره التاريخي الكلاسيكي، في التعارض الطبقي بين البورجوازية والبروليتاريا.

إن وضعية العامل ليست نتاجا، لا لموهبته ولا لمعارفه ولا لقدراته التي حصل عليها خلال فترة تكوين طويل وشاق، لكن هي في النهاية نتاج للتعارض بين الرأسمال والعمل.

إن المثقف يعيش في نمط إنتاج رأسمالي، وهو خاضع لقوانينه، فمن منتج للقيم الثقافية، تم تحويله إما لبائع "سلع" مثل الحرفي الصغير، أو مثل البروليتاري، فهو يعرض في السوق كـ "أجير" يبيع فيه البضاعة الوحيدة التي يتوفر عليها، وهي قوة عمله والكد لمصلحة الرأسمالين، لصالح دولتهم ولفائدة الثقافة البورجوازية، وسواء باع المثقف منتجاته أو قوة عمله، فهو في جميع الأحوال خاضع لقوانين السوق الرأسمالية. في البيان الشيوعي كان ماركس قد بين بشكل ساطع، أن العالم مثله مثل الفنان لم يعودا اليوم إلا بائعي بضائع.

على عكس ما يتصوره المثقفون في أغلب الأوقات، فإن علاقاتهم الاقتصادية مع الرأسمال لا تضعهم بتاتا في موقع تعارض لا يمكن تجاوزه تجاه البروليتاريا، وتجاه ارتباطهم الشديد بالبورجوازية على المستوى الاجتماعي، فالعكس هو الصحيح، فالمثقف في الواقع مرتبط بالبروليتاري بمعارضته للرأسمال، إنه منفصل نهائيا عن البورجوازية بالدور الذي يقوم به كبائع لمنتوجه أو قوة عمله، وأن يلعب في السوق هذا الدور أو ذاك، فهو خاسر في جميع الأحوال، فسينتصر عليه الرأسمالي الكبير، إن هم الخبز اليومي يستعبده، كما يستعبد البروليتاريا العمل اليدوي. إن الاستغلال والعبودية التي يتعرض لها، ليست إلا مظهرا خاصا للاستغلال والاستعباد لكل عمل مهما كان، من طرف الرأسمال.

إذن فقط، بتحطيم قوة الرأسمال عن طريق القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، التي ستصبح ملكية جماعية، يمكن وضع حد لواقع الحال هذا. إن الثورة البروليتارية هي وحدها التي ستعيد للمثقف حريته كما تعيدها للعامل اليدوي، فمصلحته العليا تفرض عليه النضال إلى جانب البروليتاري لوضع نهاية للإنتاج الرأسمالي والسيطرة الطبقية للبورجوازية.

المثقفون فئة اجتماعية خاصة:

يشعر المثقفون بصفة عامة أنهم متضامنين بشكل قوي ودقيق مع المجتمع البورجوازي، ويفسر هذا بالتطور الذي جعل منهم فئة اجتماعية خاصة، حيث أن المثال النموذجي هو ذلك المتخصص الذي تكون في الإطار الضيق لحقل تخصصه، الشيء الذي يتوافق وظروف الإنتاج الرأسمالي، بتقسيمه للعمل والبنية المذرة (من الذرة) للمجتمع البورجوازي، مع فصل الوظائف الاجتماعية.

إن تشكل المثقفين كفئة اجتماعية مرتبط بشكل وثيق بتطور الإنتاج الرأسمالي وبالمجتمع البورجوازي الطبقي.

في أصل الإنتاج الرأسمالي نجد اكتشافات العلم والتقنية وكبار الملاحين، ولم يكن ذلك بالوارد بدون اختراعات العلماء والتقنيين، وبدون، كذلك، النشاط والقدرات التديرية للتجار وبدون جرأة الملاحين، وفي نفس الوقت، وإن كان العلم والتقنية والتدير والإدارة عوامل أساسية في نشأة الرأسمالية، فهذه الأخيرة في المقابل، مارست التأثير الأكبر على تطور العلوم، وبالأساس العلوم الطبيعية، ويمكننا عمليا أن نقول أن الكيمياء هي علم الإنتاج الرأسمالي، لأنه بفضل هذه الأخيرة أصبح بالإمكان تحويل الخيمياء (الاشيمي) العجيبة للقرون الوسطى إلى علم ثوري، ونفس الشيء ينطبق على التقنية الكهربائية وتخصصات تقنية أخرى.

لم تكن البورجوازية قادرة على تحرير الإنتاج من البنيات الفيودالية، بدون المساهمة الحاسمة للمثقفين، أيضا، كانت في حاجة إليهم فقط، لتحقيق أهدافها في الهيمنة السياسية والاجتماعية، لقد كانت في حاجة إلى مساعدتهم لتستطيع، تحت قاعدة علاقات جديدة، تغيير البنية الفوقية الإيديولوجية للمجتمع الفيودالي لتصنع منها بنية فوقية إيديولوجية للمجتمع البورجوازي.

باعتبارها طبقة مالكة، فقد كانت البورجوازية قد توصلت في إطار النظام الفيودالي، إلى ثقافة تتجاوز ثقافة الأسياد القائمة وربطت بها المثقفين بعناية.

لقد أصبح هؤلاء مبشروها وروادها، في صراعها ضد أنماط تفكير المجتمع الفيودالي وفتتها ذات الامتيازات: الكنيسة، النبالة وملوك الحكم المطلق.

لقد صهر المثقفون الأسلحة الضرورية، واستعملوها من أجل تحطيم سلطاتها، وقد ارتكز الناطقون بلسانها، أولا على الإنجيل وعلى علوم العصر القديم وفنونه، وبعد ذلك، كان سلاحهم الأساسي، العقلانية الانجليزية، وخاصة فلسفة الموسوعيين. إن المثقفين نجدهم على رأس كل الحركات الإصلاحية والثورية، فقد حولوا المجتمع الفيودالي إلى مجتمع بورجوازي، والمثقفون هم أيضا من قاد الشيع – الاجتماعية - الثورية الأكثر أهمية والحركات الفلاحية الكبرى.

إن نضال المثقفين قد حرر العلوم والفنون والثقافة من قيود النظام الفيودالي وانتزعوها من القوى القائمة، ووضعوها في خدمة البورجوازية والمجتمع البورجوازي، فقد تمت "علمنة" الفن والعلم.

"عمال غير منتجين، أفواه عديمة الفائدة":

إن مساهمة المثقفين في تطور الاقتصاد الرأسمالي وتحرر البورجوازية وفي فرض سيطرتها، اكتسبت شيئا فشيئا أهمية، ستتقوى بفضل الإنتاج الرأسمالي، وتتأكد وضعيتها المسيطرة في الإطار نفسه للمجتمع الفيودالي، والوصول في النهاية إلى السلطة بالنضال الثوري.

إن مهام المثقفين وأهميتهم بالنسبة لتطوير الاقتصاد قد تزايدت، وفي نفس الوقت نجد أيضا أن القوى التي تدفع إلى تغيير البنية الفوقية الإيديولوجية، وخلق الجهاز السياسي الذي تحتاجه البورجوازية، من أجل فرض نفسها وتأكيدتها، تتقوى.

لم يكن المثقفون فقط، منظمين وقادة الإنتاج الرأسمالي، بل وفروا أيضا للدولة البورجوازية وأجهزتها، العاملين والموظفين والمستخدمين الضرورين للتشريع والإدارة في جميع الميادين وجميع المؤسسات، حيث تكون فيها البورجوازية في حاجة لممارسة السيطرة على الطبقات الأقل غنى، بل الفقيرة، وبشكل خاص على البروليتاريا. مع ذلك، فمكافأة المثقفين لم تكن في مستوى مساهمتهم التاريخية في التمكين من هذه السيطرة، فقد نسيت البورجوازية بصفة خاصة أن الذين خلقوا اللبرالية والديموقراطية البورجوازية كانوا هم المثقفون، فبفضلهم تمكنت من إغراء العمال لمدة طويلة وتكبيهم، فهي لم تهتم بهم إلا بقدر ما كانوا منتجين لفائض القيمة بصفة مباشرة. إن المثقفين الذين امتهنوا وظائف اجتماعية أخرى، كانوا يعتبرون، في النهاية، من طرف البورجوازية كـ "عمال غير منتجين، أفواه عديمة الفائدة".

لقد شرح كبار اقتصاديي البورجوازية الصاعدة بدون أي غموض، أنه وحده ذلك الذي يعيش من أجل الزيادة في الرأسمال من يمكن اعتباره منتجا، وليس ذلك الذي يعيش من مداخيل الرأسمال، ونأخذ آدام سميث على سبيل المثال، الذي قال "إن بعض الفئات ذات الاعتبار في المجتمع لا تقدم إلا القليل من العمل المنتج مثلها مثل خادم البيت"، ومن بين هذه الفئات التي يضعها آدام سميث في نفس مستوى خادم البيت، يوجد هناك: الأمراء الحاكمون، ضباط الجيش والبحرية وكل الجهاز العسكري، القضاة، الأطباء ومثقفون آخرون، وأخيرا مغني الأوبرا والممثلين والكتاب وراقصي البالي.

من خلال هذه الرؤية، فقد نظرت إذن البورجوازية إلى العاملين في مجال الفكر باحتقار كطبقة دنيا من المستهلكين العديمي الفائدة، وإنه فقط عندما وصل فائض القيمة، عن طريق استغلال البروليتاريا، إلى رقم مرتفع جدا، أصبحت البورجوازية تتوفر على ترف رمي بعض الفئات من ثروتها إلى المثقفين غير المنتجين، أي إلى أولئك الذين لم يكونوا منخرطين مباشرة في الإنتاج.

إن التعبير التاريخي عن احتقار البورجوازية هذا للمثقفين، هو الوضعية البئيسة لأغلبهم، ففي الوقت الذي كانوا هم من خلق البنية الفوقية الإيديولوجية للمجتمع البورجوازي، أي الإيديولوجيا المسيطرة، كان عليهم أن يبحثوا عن الحماية إلى جانب السادة الصغار، وكانوا مكرهين

على القبول بأعمال ذات أجور زهيدة، وفي بعض الأحيان أيضا القبول ببعض الوظائف الكنسية، رغم أنهم كانوا مفكرين أحرارا: لقد حولوا إلى رتبة مربى أطفال، وكان عليهم أن يلتجؤوا إلى صالونات سيدات النبالة.

إن تاريخ البورجوازية وصراعها ضد الأرستقراطية، أو بشكل أدق، تاريخ أولئك الذين خاضوا الصراع في إنجلترا وفرنسا وألمانيا يقدم الدليل على ذلك.

لم يستخلص المثقفون النتائج من هذا الاحتقار الصارخ لعملهم، فهم لم يكن لديهم انطباع أنهم منفصلون عن البورجوازية، بل اعتبروا أنفسهم جزءا منها، فقد عاشوا في وهم أنهم، بممارستهم لمهنة حرة، فهم يمثلون علما "حرا" وفنا "حرا" وثقافة حرة"، وأن أغلبهم بقي على هذا الانطباع، فكيف يمكن شرح ذلك؟

لقد جرت داخل الأنتلجنسيا عملية تراتبية اجتماعية أكثر تعبيراً عن التصنيف المستعمل عادة، بمعنى مستخدمي القطاع الخاص وموظفي الدولة والمصالح العمومية والمهن الحرة. لقد كانت الفئة العليا من الأنتلجنسيا قريبة من البورجوازية، أو انبثقت منها، وبفضل وضعيتها في مقدمة عملية الإنتاج وفي الحياة السياسية، أو في مختلف المجالات الثقافية "ارتقت" أقلية عن طريق العمل أو الطموح إلى مرتبة البورجوازية التي أصبحت منذ ذلك الحين جزءا منها، وفي مرتبة أدنى من هؤلاء المحظوظين، نجد فئة عريضة من المثقفين التي تعيش حقا بشكل تقليدي في هدوء عالم بورجوازي صغير، ولكن أيضا، تتقاسم معها الذائقة سواء على المستوى الاقتصادي أو الثقافي، ثم تأتي المجموعة الثالثة من العاملين في مجال الفكر الذين لم يسعفهم لا حظهم، ولا نجمهم في الحصول على أي امتياز، والذين يتموقعون على هامش البروليتاريا الرثة التي غالبا ما يذوبون داخلها، وهنا يوجد طابع مميز، فعندما لا يستطيع مثقف البقاء في مدار البورجوازية باحتلال وضعية متحملة أو مميزة، فهو لا يسقط في أغلب الحالات في صفوف البروليتاريا، بل يغوص داخل البروليتاريا الرثة.

الوضعية المتميزة للمثقفين:

مع ذلك، فبالمقارنة مع ظروف الحياة والوضعية الاجتماعية للطبقة العاملة، يمكن القول أن الانتلجنسيا كانت تتمتع بوضعية متميزة وسط المجتمع البورجوازي، ووفقا لذلك كان المثقفون يحسون أنهم منفصلون عن البروليتاريا، لكن هذه الوضعية المتميزة للانتلجنسيا كانت غير متساوقة تماما على المدى البعيد مع مصالح البورجوازية، بمعنى البحث عن الربح والتراكم والسيطرة داخل الدولة والمجتمع، وبطبعها، فعلى البورجوازية إذن، أن تميل إلى تحطيم امتيازات الانتلجنسيا، وقد حطمتها عندما وازنت العرض والطلب في ميدان العمل الثقافي.

إن وضعية الامتياز التي كانت للمثقفين على المستوى الاجتماعي تأتي في جزء منها، وخلال مدة طويلة، بعد التحرر السياسي للبورجوازية، من تطور التعليم والثقافة الذين ظلا مكبوحين ومعرقلين ببقايا النظام الفيودالي.

كان عدد المثقفين الذين تتوفر عليهم البورجوازية للوصول إلى أهدافها في ميادين الإنتاج والسلطة متقلصا جدا، لقد كانت البورجوازية في حاجة إلى عدد من الباحثين والتقنيين يكرسون قواهم لتطوير الإنتاج، لقد كانت في حاجة لثقافة عالية للمحافظة على قيادتها لعبيد الدولة المثقفين، حيث كانت المهمة تتمثل في توفير أساس إيديولوجي لسلطتها. كان إذن لا بد أن تتوفر على فائض من العاملين في مجال الفكر، حينئذ بدأت في مضاعفة إنعاش مؤسسات التعليم العالي بل وحتى تحسين المدرسة الابتدائية، وقد كان نتيجة هذه السياسة أن توفر فائض في إنتاج المثقفين، أو بتعبير أدق، فائض إنتاج نسبي. وفي الواقع، فطالما أن الجامعات تكون أكثر عدد من الناس مما تحتاجه البورجوازية لتحقيق أهدافها من الربح والسيطرة، فهناك فائض، وفي المقابل، لا يوجد هذا الفائض إذا اعتبرنا المشكلة من زاوية الحاجة الثقافية الضخمة للجماهير، حينئذ ذلك تتوفر البورجوازية على جيش احتياطي ضروري لتخفيض المكافأة للعاملين في مجال الفكر ومفاومة وضعيتهم، وقد استخدمت هذه الوسيلة بشكل كامل.

إن التصنيف الاجتماعي للأنتلجنسيا الذي تكلمت عنه سابقا، قد تعمق بين المجموعات الثلاث، كما تفاقمت الفوارق، فعدد العاملين في مجال الثقافة والفكر، الذين شاركوا في الحياة الزاهية للبورجوازية وفي رغد عيشها تقلص نسبيا وإن كان قد تضاعف في المطلق.

ليس من الممكن إحصائيا تحديد مستوى قياس حجم علاقات التغيير بين المجموعة الثانية والثالثة، وحتى ما قبل الحرب، وأمام ارتفاع عدد المثقفين داخل الاقتصاد والدولة إلخ... فهؤلاء السادة الإصلاحيون وعلى رأسهم برنشتاين، وصلوا إلى خلاصة تشكل "طبقة متوسطة جديدة"، التي ستستخدمها البورجوازية كسور ضد البورجوازية، فحسب هذه النظرية، فإن العديد من العاملين في مجال الفكر والثقافة مدعوون لتسلق السلم الاجتماعي، وتسمح الإحصائيات بتأكيد صحة هذه النظرية، فمبلغ الأجرة أو المداخيل ليس عنصرا كافيا لتحديد الوضع الاجتماعي لمختلف فئات المثقفين، ويجب أيضا الأخذ بالحسبان نمط العيش المعتاد والإمكانيات المادية والثقافية التي يوفرها دخل عمل المثقف. تحت هذه الزاوية، يجب أن نخلص إلى تفاقم في وضعية الأنتلجنسيا في جميع الميادين وفي مختلف البلدان، وهذا هو مكن مشكل الأنتلجنسيا.

صراع المثقف ضد منافسة النساء وتحررهن

هذا يعني أن البورجوازية لم تكن قادرة على ضمان للعاملين في مجال الثقافة وضعية تناسب مستوى عيش يناسب مكانتهم، والذي كانت تضمنه لهم لحد الآن.

إن أول تظاهرة جماهيرية متميزة تثبت أن هذه المشكلة موجودة في المجتمع البورجوازي، وهي ذلك الصراع الحاد والحماسي للمثقفين ضد ولوج النساء التعليم العالي والأنشطة المهنية. فماذا كانت تخفي إذن الابتدالات الإيديولوجية للأساتذة والدكاترة والآخرين من أمثالهم، الذين انطلقوا في حرب ضد تحرر النساء ؟ إنه أساسا الخوف من المنافسة.

إن الصراع ضد التكوين المهني وعمل المرأة يفصح عن أمرين وهما : أولا، عدم قدرة المرأة البورجوازية ضمان دخل للمثقفين يمكنهم من الحفاظ على مكانتهم، وفي هذه الأوساط ، لا تقدر الأسر على ضمان الوجود المادي للنساء، ولا أن تمنحها هدفا ومثالا للوجود، ثم خشية المثقفين من أن يروا وضعيتهم الخاصة تتدهور إذا ما ولجت النساء التعليم العالي والحياة المهنية، والوقائع تؤكد ذلك، ففي روسيا القيصرية مثلا، فهذا الصراع لم يتواجه فيه - كما في أوروبا الغربية - الأزواج مع زوجاتهم، بل الأجيال أي الآباء والأبناء، والمحافظون على الإيديولوجيا القديمة للنظام الفيودالي والاستبدادي ضد المدافعين عن الإيديولوجيا اللبرالية للمجتمع البورجوازي الصاعد.

وفي الوقت الحالي، الذي وصلت فيه أزمة الأنتلجنسيا حدة لم يكن يتصورها أحد، فإن الصراع ضد عمل النساء، الذي كان قد انطفاً تقريبا قبل الحرب، عاد ليخرج من عقاله من جديد، وليس فقط عند المنهزمين، بل عند الذين يسمون "منتصرين"، ففي الولايات المتحدة الأمريكية

مثلا، حيث حاز النضال من أجل مساواة النساء بالرجال على أولى انتصاراته الكبيرة، نكتشف حاليا في بعض الأوساط (أساتذة...) تيارا قويا إلى حد ما ضد توسيع حقل الأنشطة النسائية، حيث ينتشر وسطها الشعار التالي "كل تقدم للمرأة هو تراجع للرجل".

إصلاحات، مصالحة أو نداء للنوايا الحسنة للباطرونا

لكن هناك أيضا ظاهرة جماهيرية أخرى، تبرهن على أن مشكل الأنتلجنسيا يتطور وسط المجتمع البورجوازي، فمنذ حوالي سنة 1880 نرى ظهور وباء حقيقي من الإصلاحيين الاجتماعيين من جميع الاتجاهات : اشتراكيو المنبر¹، مصلحون زراعيون، سلميون، مدعوا الفن، المالتوسيون الجدد، المصلحون الجنسيون الخ ... فما الذي يميز هذه التيارات ؟

إن واحدة من النقاط التي يشتركون فيها، اكتشافهم الفجائي، أنه يوجد هناك مشكل اجتماعي، ويختفي وراءه شبح البروليتاريا العملاق، التي انخرطت في النضال الثوري.

إن موقع المثقفين بين الطبقات، ووضعهم الهجين بين الطبقات الأساسية للمجتمع، التي تهيء لتصفية حسابات كبيرة بين العمل والرأسمال، تخرج من بين صفوفهم رسل المصالحة الطبقية، فهم يدعون البورجوازية والبروليتاريا إلى عقد السلم بينهما، وهذا شيء جديد وفريد من نوعه، ففي ما مضى كان المصلحون الاجتماعيون - باستثناء القليل منهم تقريبا - يضعون كل آمالهم في تفهم وطيبة قلب المالكين والحكام. هؤلاء الإصلاحيون يرفضون صراع الطبقات فبالأحرى الثورة، فهم ينتظرون كذلك كل شيء من بورجوازيين مستغلين (بكسر الغين) وبروليتاريين مستغلين (بفتح الغين) بدأوا يتمردون.

1. اشتراكيو المنبر، كانوا أساتذة الاقتصاد السياسي يدعون بعض الإصلاحات الاجتماعية وأهم من يمثلهم : غوستاف شمليير (Gustav Schmoller)، لوجو برينطانو (Lujo Brentano)، ورنير سومبارت (Werner Sombart).

إنه من المهم جدا تسجيل أنه بالضبط في ألمانيا، بلد "النظرية" حيث التيارات الإصلاحية، المعبر عن مشكل المثقفين، وحيث بلورتها النموذجية في شكل "اشتراكية المنبر" ومختلف تنوعاتها ذات الطبيعة العلمية بهذا القدر أو ذاك.

وفي فرنسا بلد "السياسة" فهي تترجم في الموضحة التي تتوسع أكثر فأكثر، والمتمثلة في الأحزاب البورجوازية الجدرية التي تعمل قليلا في "الاجتماعي". إننا نرى إذن، بروز أحزاب أو جنين أحزاب تسمى ديموقراطية اشتراكية واشتراكية جدرية أو أي شيء آخر، فالأساسي أنه توجد كلمة اشتراكي في العنوان، وقد كان الممثل اللامع لهذا الاتجاه رفيقنا جوريس في فرنسا. و انطلاقا من هنا، فقد تطور بشكل منطقي إلى غاية الاشتراكية، بدون أن يتخلص في المقابل من بقايا الديموقراطية البورجوازية والإيديولوجيا البورجوازية.

أما في إنجلترا، فإن التعبير الكلاسيكي عن الحركات الإصلاحية المرتبطة بمشكل المثقفين هو الجمعية الفابية² التي تسمى نفسها الاشتراكية البناءة، والممثلة أيضا في وسط الحزب العمالي، والممثلة أساسا بالمثقفين.

في كل البلدان الرأسمالية أثر الإصلاحيون الاجتماعيون المنبثقون من الأنتلجنسيا في الأرستقراطية العمالية ووجدت أفكارهم امتدادها الأكثر جدرية في الانتهازية والحركة الإصلاحية العمالية.

من إصلاحيين إلى أنصار الامبريالية

مهما كان برنامج المثقفين، المصابين بالحمى الإصلاحية، فإنهم كلهم متفقون على عدم المس بأسس النظام البورجوازي، ليرفضوا إلغاء الملكية الخاصة، وبالتالي السيطرة الطبقية والصراعات العدائية الطبقية التي يحلمون بتلطيفها، لكن هؤلاء السادة كانوا في حاجة إلى قاعدة ينطلقون منها لتحقيق إصلاحاتهم.

2 . جمعية اشتراكية انجليزية تأسست في لندن سنة 1883 من طرف إدوارد بيس (Edward Pease)، كان أعضاؤها بالأساس مثقفون من بينهم برنار شاو (Bernard Shaw) و ولس (Wells).

يوجد خط مباشر بين المصلحين الاجتماعيين والامبريالية، فالامبريالي الانجليزي المشهور سيسيل رودس أطلق الصيغة المعبرة : "الامبريالية أو الثورة". وفي الواقع، فإن الإصلاحيين البورجوازيين، الذين يريدون تفادي الثورة دون المس، مع ذلك، بذلك المبجل - المقدس ألا وهو الربح ودون المس بالسيطرة البورجوازية، كانوا يبحثون عن قاعدة اقتصادية لإصلاحاتهم فوجدوها خارج وطنهم، في استغلال الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة، والتي بفضل النهب بدون ضمير والاستعباد للإنساني للأهالي، تجني أرباحا هائلة، والتي على قاعدتها ينتزع الرأسماليون بعض الفتات من أجل تمويل تنازلات نقابية ناذرة وإصلاحات اجتماعية يمنحونها ل "مواطنيهم"، لكن تحول هؤلاء الإصلاحيين الاجتماعيين إلى ممهدين أوائل للامبريالية، كان له هدف آخر، وهو الحرص على وجودهم الخاص.

إن العاملين في الثقافة بحكم عددهم لم يعودوا يجدون أي عمل مجز في بلدانهم، ولا يستطيعون البتة العيش فيها حسب "مرتبهم"، فالمستعمرات أهدتهم أفق مهن لامعة ومداخل مرتفعة ومضمونة ومغامرات وأمجاد، ففي هذه الظروف فليس من باب المفاجأة، أن الامبريالية كانت قد وجدت وسط المثقفين أنصارها الأكثر حماسا، من ذلك الحارس الليلي إلى الوزير، من معلم القرية إلى أستاذ الجامعة، من ذلك الواصف الصحافي النكرة في صحيفة يومية إلى باحث، فقد اكتشفوا جميعا الامبريالية وذهبوا إلى الشعب لنشرها.

كما صهر المثقفون في الماضي الإيديولوجيا البورجوازية، إيديولوجية الدولة الوطنية، فإن الجيل الجديد وفر مداحي الامبريالية وسفسطائي النظريات العرقية الخاطئة علميا، التي كانت تبرر كل التناقضات وبشاعات السياسة الاستعمارية، فقد جعل المثقفون من أنفسهم الدعاة الأكثر تعصبا، ومنظمو الامبريالية المدافعون عن الاستغلال والاستعباد بكل شراسة في المستعمرات وشبه المستعمرات، مثقفون بينوا أنهم عندما يتعلق الأمر بنهب واستعباد شعوب المستعمرات يعرفون كيف يربطون العنف الدنيء للمغامرين الاستعماريين الإسبان في مرحلة التراكم البدائي للرأسمال بتهذب وتلطف الغزاة العصريين والمتحضرين.

إن المثقفين مع كبار رأسمالي الصناعة والمال، هم المسؤولون الكبار عن السباق نحو التسليح وعن الحرب العالمية وتمديدتها، وإذا كان هناك، إلى جانب كبار البورجوازيين والخونة الإصلاحيين أناس ملطخون بالدم المهرق خلال أربع سنوات من المجزرة، فهم المثقفون الذين

تبنوا فكرة الوطن الكبير، باعتبارهم ممهدين للفكرة الامبريالية، فهم مسؤولون عن هذا النصب والاحتفال وخداع الجماهير، الشيء الذي سمح بالسباق نحو التسليح لكل الأمم المسماة متحضرة، لقد طوروا هذا الذهان القاتل للجماهير الذي سمح بتمديد الحرب خلال سنوات .

نزع ملكية البورجوازية المتوسطة والصغيرة وإفقار البروليتاريا

لقد شاءت سخرية التاريخ أن يكون المثقفون الفئة الاجتماعية التي ضربتها الحرب العالمية بكل قساوة أكثر من غيرها، ذلك أنه لم تخرج أي من القوى المتصارعة التي كانت تحلم بانتصارها، منتصرة، فالوحيدة الذي خرجت رابحة من هذه الحرب هي البورجوازية الكبيرة في كل البلدان، فالذين انهزموا في الحقيقة هم البروليتاريون والبورجوازيات الصغيرة، معنى ذلك أيضا، العاملون في مجال الثقافة في البلدان المنتصرة كما في البلدان المنهزمة، فقد تحددت وضعيتهم منذ ذلك الحين بالدمج بين عاملين : نزع ملكية البورجوازية الصغيرة والمتوسطة وإفقار البروليتاريا، فاقتران هذين العاملين، نتج عنه تدهور ملموس في مصير المثقفين، فوضعيتهم أصبحت وضعية محنة، فهي تتميز بغياب الأمان والاستقرار في الشغل والدخل وفترات طويلة من البطالة وانخفاض الأجرة، وإذا لم يكن ذلك بأرقام مطلقة بالنسبة لكل البلدان ولكل المهن، فإنه كيفما كان الحال، في كل مكان بالمقارنة مع تكلفة المعيشة وضرورة تغيير المهنة، وفي كثير من الأحيان ترك تلك التي تهيأ لها المثقف خلال سنوات عديدة، وإجبارية البحث عن مصدر عيش إضافي، في المعمل وفي التجارة وفي ورش بناء وفي مقهى، باختصار في أي مجال كان سوى ذلك الذي له علاقة بعمل المثقف، واستحالة تربية أبنائه "حسب مرتبته" وحتى تغذيتهم بشكل ملائم . إنه الانزلاق نحو البروليتاريا.

علي أن أسطر الطابع العالمي لهذا الوضع المأساوي للأنتلجنسيا، أجل، إنه صعب الاحتمال بشكل خاص في ألمانيا لأن النتائج العامة للحرب فيها زادت نتائج الهزيمة من مضاعفتها، لكن لا شيء أكثر تغليطا من تخيل أنها تختص بها فقط الدول المنهزمة، إن الواقع يناقض هذا التفسير، وها هو واحد منها : إنه بالضبط في ألمانيا تجلت أولى صعوبات الأنتلجنسيا، وهذا قبل الحرب، وفي زمن حيث كان الاقتصاد الرأسمالي في أوجه، وحيث أن السلطة السياسية كانت في أوج قوتها، فمنذ ما قبل الحرب كان دخل المهندسين والشباب والتقنيين والكيميائيين أقل من دخل العمال ذوي المؤهلات المرتفعة و منذ ما قبل الحرب كان هناك فائض هام من المثقفين وأشباه المثقفين، الذين لم يكونوا

يتوفرون على عمل أو على الأقل لا يتوفرون على شغل قار، والذين لا يأكلون ملاً معدتهم . لكن هناك حقيقة أخرى تثار أيضا ضد تفسير قومي لبؤس العاملين في مجال الثقافة الذي يستعمله الفاشيون والإصلاحيون لتأجيج المشاعر الشوفينية.

تحسب فرنسا ضمن المنتصرين، ومع ذلك نسجل فيها نفس الظواهر، فهنا أيضا انخفضت مداخيل المثقفين بشكل واضح جدا، وهي أقل في بعض الأحيان من مداخيل البروليتاريين المؤهلين.

في ألمانيا يتم شجب الإساءة المخزية بشكل خاص للقوى الرأسمالية لمحور الوفاق، التي وضعت ألمانيا تحت المشرط ، فقد ظهر "الطالب الأجير" ، يعني الطالب المكروه على مزاولة عمل يدوي إلى جانب دراسته، من أجل أن يتمكن من العيش، ف 53% نسبة الطلبة في تسع جامعات كانت على هذه الحال لفصل دراسي (أسدس) في شتاء 1922 – 1923، بل 60% حسب مصادر أخرى.

لكن كيف هي الوضعية في البلد الذي عليه أن يؤدي نتائج الخسائر وحيث ظهر فيه انتعاش نسبي في بعض قطاعات الإنتاج ؟ في فرنسا أيضا، هناك عدد هام ومتزايد من الطلبة الذين يعملون ككناسي شوارع ونادلون في مقهى أو خادمون في مجزرة، ويقومون أيضا بمنافسة العمال في صناعة الملابس النسائية الخ ...

هناك أكثر من ذلك، فأزمة الأنتلجنسيا توجد أيضا في الأكبر والأغنى من كل البلدان المنتصرة، وهي الولايات المتحدة الأمريكية، أجل، وإن كان بشكل طفيف، وفي ظروف أخرى مختلفة عن أوروبا، فقد بدأت في زمن الأزمة الاقتصادية الكبرى لما بعد الحرب، لكي تتراجع في ظرفية الازدهار، لكن كثير من العلامات تشير إلى أنها لم تتوقف بصفة نهائية، بل تنبعث من جديد مع بداية أزمة اقتصادية جديدة.

الحاصل، أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار، أن ظروفًا خاصة تؤثر على أزمة الأنتلجنسيا بالولايات المتحدة الأمريكية، فالمهندسون والتقنيون الخ ... هم بصفة عامة مهتمون بالأرباح، فحتى في حالة البطالة فهم مع ذلك يتوفرون على بعض الموارد، فالتكوين بالنسبة للمهن التي يقال عنها مهن عالية، تجري تبعا لمخططات مختلفة تماما عن تلك التي هي جارية في الدول ذات الثقافة الرأسمالية القديمة. ليست الجامعات محتكرة

من طرف الدولة، والولوج إليها ليس قاصرا على فئات مغلقة محظوظة، بل يتم الولوج إليها بكل سهولة أكثر منا، فالتعليم عندهم منظم بشكل مختلف، فهو يسمح بالتوفيق بين العمل اليدوي والعمل الفكري، ويمكن التوقف مؤقتا عن الدراسة لممارسة نشاط آخر. باختصار، فالتكوين "العالي" مصمم بشكل أقل ضيقا، فداخل الشركات لا نسجل فصلا صارما ما بين العمل الفكري والعمل اليدوي، بالعكس، فإن المثقفين هم بصفة عامة قادرين على القيام بعمل يدوي، ولهذا السبب من السهل نسبيا الانتقال من نشاط لآخر.

وأخيرا يجب الأخذ بعين الاعتبار التصور الذي عند الأمريكيين للعمل بصفة عامة، فهو بالنسبة إليهم يصلح بصفة أساسية لربح المال، فطبيعته هي مسألة ثانوية عندهم، لهذا السبب - في أمريكا على عكس التصور الذي يسود في أوروبا - فإن يمارس مثقف، مؤقتا، عملا يدويا لا يتم الإحساس تماما كأنه نزول في الدرجة على المستوى الاجتماعي، شرط أن يمكنه من العيش.

في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، فإن تدهور وضعية المثقفين تترجم بصراع متصاعد ضد منافسة الأوربيين المهاجرين، الذين يتوفرون على تكوين علمي وتقني، فظروف الهجرة أصبحت صعبة أكثر فأكثر عما كانت عليه.

إذن يحق لنا التأكيد على أن أزمة الأنتلجنسيا هي ظاهرة مرتبطة بالأساس بجميع البلدان الرأسمالية، ويظهر أنها أقل حدة في إنجلترا بالرغم أن عدد "فقراء جدد" قد تصاعد بشكل جلي، لكن استغلال المستعمرات شكل دعما للاقتصاد الرأسمالي، وأن الأرباح الإضافية التي حققتها البورجوازية الإنجليزية في البلدان المستعمرة استفادت منها إلى حد ما الطبقة المتوسطة وذلك، على شكل فوائد أالخ ... مما سمح لبعض المثقفين من النجاة في أسوأ ظروف الأزمة، ومع ذلك، وحتى في إنجلترا فإن وضعية العاملين في المجال الثقافي تتدهور، فلا يعدم ناس عاطلون، أو ليس لهم سوى أعمال موسمية - خاصة في قطاعات الإنتاج والتجارة - والهوة بين الموارد وتكلفة المعيشة يتم الشعور بقساوتها أكثر.

لا يمكنني اليوم مع الأسف استحضار وإن بشكل موجز مشكل الأنتلجنسيا في المستعمرات، وأتمنى أن أتمكن من القيام بذلك لاحقا.

الفاشية وتسييس المثقفين

جرت أزمة الأنتلجنسيا إلى تسييس المثقفين ، الذي هو نتاج التسييس القوي للبورجوازية الصغيرة الذي نشاهده اليوم في جميع البلدان الرأسمالية، والذي وصل إلى درجة غير معروفة لحد الآن. لقد غادر المثقفون ساحة الإصلاحات الاجتماعية وانتقلوا إلى الخوض في الصراع السياسي ، فلم يعودوا يعولون على الموقف المتفهم للبورجوازية من أجل الوصول إلى تغيير الظروف الاجتماعية، بل يعولون على ضغط الصراع السياسي للوصول إلى السلطة، وإذا اقتضى الحال إلى إقامة الدكتاتورية.

إن التعبير القوي على تسييس المثقفين هو الفاشية، ليس فقط أنهم يدعمونها بشكل مكثف في جميع البلدان، بل هم مبدعو إيديولوجيتها، التي تمدد الأيديولوجيا الامبريالية المشبهة والمدعمة بعناصر قومية واجتماعية.

إن تأثير الفاشية على المستوى الاجتماعي مرتبط بالتفكير المتصاعد الذي يضرب جماهير واسعة من البورجوازية الصغيرة ومن المثقفين ، فبرنامجها متنوع وجذاب، لكن تحقيقه لن يحل أي من التناقضات الاجتماعية والاقتصادية التي تسكنها، لأن الفاشية أيضا تحب الاحتفاظ بجدور التناقضات الاجتماعية، وهي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وبالنتيجة سيادة الاستغلال الرأسمالي .

في الوقت الحالي لا تستطيع البورجوازية عمليا الذهاب أبعد من ذلك بكثير في الاستغلال والمصادرة الاقتصادية للبورجوازية الصغيرة والمتوسطة، لكن في شكل الفاشية تستطيع من الآن فصاعدا استغلالهم على المستوى السياسي، فهي تستعمل معاكلا من القوة غير الشرعية للفاشية والوسائل الشرعية التي تتوفر عليها، وستكون مستعدة عند الاقتضاء لقبول أن تقييم الفاشية دكتاتوريتها وتتكون كسلطة شرعية بشرط أن تحميها ضد البروليتاريا، هذا وحده كافي ليبين، وإيطاليا الدليل على ذلك، أنه ليست هناك اختلافات أساسية بين الفاشية والرأسمالية .

لقد كان المثقفون الممهدون الإيديولوجيون للمجتمع البورجوازي ودافعوا عنه كذلك بالسلاح، فباعثبارهم فاشيين، فهم يشكلون المواقع الخلفية للبورجوازية، دون الحديث عن الإصلاحيين، حيث كان جزء منهم قد انخرط في الطريق الفاشي .

تسييس الأنتلجانسيا والنزعة السلمية للبورجوازية

بالإضافة إلى الفاشية، فتسييس الأنتلجانسيا ولد ظاهرة جماهيرية أخرى هي النزعة السلمية الديموقراطية البورجوازية، فهي، كما هو الحال بالنسبة للفاشية، انبثقت عن الحركة الإصلاحية، لكنها لا تستند على فئة مهمة من السكان، ضحية التفجير، بل تستند على مجيوعات صغيرة معزولة، موزعة في جميع الأوساط ، بما في ذلك وسط البورجوازية، حيث نجد داخلها أناس يتحركون في محيط التروستات الكبيرة، صناعيون صغار والتجار الرأسماليون الصغار ألخ ... ثم دبلوماسيون منبوذون، حيث الأفق، على عكس الجترالات، فاق حدود فناء الثكنة، موظفون سامون الذين تنطبق عليهم نفس الملاحظة، وأخيرا أناس خرجوا من أوساط كاثوليكية لهم حساسية تجاه الخاصة فوق القومية لهذه الإيديولوجيا، وأخيرا، آخر المتمسكين بالجنح الليبرالي والسلمي للجيل القديم من المثقفين، حيث جرائم الحرب وعجز النزعة العسكرية عن حل المشاكل السياسية تواسيهم في خسارة أوهامهم وتشجع على تبادل قبل السلام مع أصدقاء وأعداء متوارثين، خلال المؤتمرات الدولية وخلال ندوات صغيرة، إن هذه النزعة السلمية هي بورجوازية تماما، إنها تصر على الإيمان بقوة الخطب والدعوات إلى التعقل للوصول إلى أهدافها وهي ترفض العنف والنضال، خاصة الصراع الطبقي الثوري للبروليتاريا والنضال من أجل دكتاتوريتها .

كل يوم يأتي بدليل من السخف على أن هذه الإيديولوجيا تقف في وسط الطريق، وها هو مثال على ذلك :

نعرف أن السلميين لا يقسمون إلا بعصبة الأمم والحال ماذا تعني عصبة الأمم، إلا أن تكون كاريكاتورا، منتوجا لقيطا للنزعة السلمية والامبريالية، تولدت من الفرازولوجيا السلمية و الممارسة الامبريالية ؟

باعتبار هذه الخصائص وطبيعتها البورجوازية، فمن الواضح أن موجة النزعة السلمية الديموقراطية التي على أساسها أسس بعض البورجوازيين ومعهم الإصلاحيون الكثير من الآمال محكوم عليها بالسقوط ثانية بسبب عدم اتساقها، فستنتهي كما انتهت النزعة السلمية نفسها . إن الفرازولوجيا السلمية والديموقراطية ستخضع للدكتات الامبريالي للبورجوازية الكبيرة والرأسمالية المالية .

الرأسمالية عقبه أمام تطور التقنيات والعلوم والفنون

إن أزمة الأنتلجنسيا علامة على واقع حال ذي أهمية تاريخية كبيرة، فهي تكشف عن الأزمة التي تضرب العمل الفكري في حد ذاته في المجتمع البورجوازي، و يعد البؤس أحد سماتها البارزة، وكذلك الحالة السيئة لمؤسسات البحث .

في جميع البلدان – باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية - يرن نداء طلب المساعدة من طرف الباحثين : يجب تصحيح الوضع الكارثي لهذه المؤسسات، فالإمكانيات المتوفرة لا تسمح بتغطية مصاريف تسييرها، فلن يكون الأمر إذن مسألة امتداد نفوذ أو إتقان، فالمتاحف والخزانات ومجموعات الكتب تركت لحالها، وفي المقام الأول توجد مؤسسات البحث في العلوم الإنسانية، والسمة المميزة لذلك أن الإصدارات العلمية تتراجع بدورها، ويتعلق الأمر هنا أيضا بظاهرة عالمية، كما يظهر عامل آخر، ويتمثل في العمل المرهق والتعذر المتزايد للباحثين في تكريس أنفسهم لدراساتهم بحرية، بدون اهتمامات ثانوية وبدون قلق، وأصبح الباحثون الشباب يقلون شيئا فشيئا والانتقاء يكون أكثر سوءا، لأن هذا الانتقاء يتم فقط حسب معايير الثروة وليس اعتبارا لكفاءات العمل، فقد ظهر الأستاذ الأجير³، والأستاذ الذي يأخذ منصبه وألقابه عن طريق الزواج أضحى ظاهرة معروفة جدا .

حول هذه النقطة أيضا يتم التأكيد على أن هذا التطور المؤسف لا يوجد إلا في ألمانيا وذا صلة بالهزيمة ، لكن التباكي الذي نسمعه في فرنسا نفسها وفي انجلترا حول الحالة الكارثية لمعاهد البحث وبالأخص في ميدان العلوم الإنسانية، يثبت عكس هذا الادعاء . إن هذا التراجع في

3 . يتعلق الأمر بالأستاذ الذي يدرس دون أن ينال مكافأة أو يجازى، والذي يكسب عيشه بمزاولة مهنة اخرى.

البحث ينعكس على الجامعات ومدارس البوليتكنيك والمدارس العليا من مختلف الأنواع، وبطبيعة الحال انعكس ذلك على تكوين أجيال المثقفين الصاعدة .

إن هذه الظواهر هي علامات على انحطاط المجتمع البورجوازي، فهي تضع تحت الضوء نتائج الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والسيطرة الطبقيّة للبورجوازية المستندة عليها . خلال فترة ما، كان الإنتاج الرأسمالي شكلا تاريخيا ضروريا لتطور القوى المنتجة على المستوى البشري والمادي، على عكس الوقت الحالي، فالإبقاء على علاقات الإنتاج الرأسمالي لم يعد له أي تأثير فيما يخص إنعاش تطوير التقنيات والعلوم والفنون والحضارة البورجوازية في مجموعها، فقد أصبحت بالنسبة لهم عائقا، وتتسبب لهم في ضرر كبير، وهذا واضح حتى في المجال الذي يلعب فيه الربح دور محرك لتطور التقنيات.

منذ ما قبل الحرب استطعنا أن نتبين أن الرأسمالية تكبح تطور التقنيات، وترتبط هذه الظاهرة بصفة خاصة بالمنافسة التي تقوم بين الشركات العملاقة والتروستات .

إننا نعرف بحق، أنه في كل البلدان الأوربية الرأسمالية وكذلك في الولايات المتحدة الأمريكية يشتري كبار التروستات في كثير من الأحيان براءة الاختراع و الاختراعات، ليس من أجل استغلالها، ولكن من أجل منع منافسيهم من فعل ذلك، فهم أنفسهم، في تقديرهم، لهذا السبب أو ذاك، يرون أنه ليس من المربح استغلالها . إن هذا الموقف يلقي الضوء على التعارض الذي لا يمكن تجاوزه، والذي يوجد في النظام البورجوازي، بين مصالح المجتمع وبين ما يتعلق بالرأسمال، فالأولى مهمة قبل كل شيء بتحسين وتخفيف ظروف العمل وزيادة المردود، و ما أن تعترض المصالح الخاصة لبعض الرأسماليين الأقوياء، فإن المحاولات من أجل تطوير سيوروات أكثر عقلانية وأكثر مردودية لا تستطيع فرض نفسها .

من يعرف كم هو عدد المخترعين والباحثين العباقرة، الذين يموتون دون أن تتمكن ثمار أبحاثهم وعملهم من أن تثري الإرث الثقافي للمجتمع، بل حتى أن يتعرف عليها ؟ هناك اكتشافات من حجم كبير بالنسبة للصحة وحماية العمال ولصالح حفظ الصحة لمجموع الشعب، بقيت غير

مستغلة ما دام إنجازها العملي لا يقدم درجة عالية من المردودية، بل تساوي قدرا هاما من المال. إن الحياة البشرية تعد رخيصة في النظام الرأسمالي .

إن العلوم وبصفة خاصة العلوم الطبيعية أصبحت في الحقيقة خادمة للتقنية، فالأستاذ الباريزي جانيت (Janet) ⁴ له صيغة جميلة لوصف هذا التطور، في رسالة نشرها للاحتجاج ضد هجر البحث، فقد كتب "إن المصنع ينتصب فوق البارثون ويهدد بتحطيمه" . وهاهي نتيجة أخرى لسيطرة الرأسمال والسعي وراء الربح، فقد انقسم البحث العلمي إلى قطاعات صغيرة معزولة، وأصبح من النادر أكثر فأكثر، أن نرى قيام عمل تنسيق وتركيب يغطي قطاعا واسعا، فكلمة الكيميائي بيرتوليت (berthollet) ⁵ تصف واقع الحال هذا حيث قال : "معي أنا يموت آخر كيميائي"، و باعتباري غير متخصصة، فإني أجهل إن كان قد وجد أحد بعده لتكذيب هذا التأكيد، طبعاً إن نتائج الأبحاث الخاصة عظيمة، لكن القطاعات كلها تعاني من هذا الغياب للتنسيق والترتيب .

هناك جانب آخر يجب الإشارة إليه، وهو أن كل جهود العلوم والتقنيات تتمحور حول ثلاثة ميادين أساسية والتي لا تهتم الحياة بل تهتم الموت : صناعة الغازات السامة من أجل الحرب، الطيران العسكري، صناعة الغواصات والطرادات و الطرادات المضادة، وهذا ما يميز بشكل بليغ جدا ما يعني به المجتمع البورجوازي تطور "العلم من أجل العلم" الذي يتحدث عنه كثيرا .

4. الدكتور بيير جانيت (Pierre Janet) كان تلميذ شاركوت، يعمل في ميدان تخصص أعصاب وتخصص علم النفس.

5. كلود برتوليت (Claude berthollet) (1748 – 1822).

الثقافة البورجوازية أصبحت كاريكاتورا

أصبحت العلوم الإنسانية تعاني بشكل واضح، إذ لا يعطى لها ما تستحق من قيمة مقارنة بالعلوم الطبيعية، ففي فرنسا، بلد الملاذ للعلوم الإنسانية والثقافة وقفنا على نفس التطور، بفضل انتصارها، فإن بلد الذين يتعيشون من الريع والبنكيين هذا، يسير في طريقه إلى أن يتحول إلى بلد صناعي .

منذ أن وصلت الامبريالية إلى السلطة وأخذت الصناعة الثقيلة انطلاقها أصبح واضح للعيان أنه يتم تفضيل العلوم الطبيعية وتطبيقاتها التقنية، فالأسماء الكبيرة في فرنسا في ميدان العلم مثل أولارد (Aulard) و لوشيج (Luchoire) ⁶ ألخ ... يلاحظون بأسف وجود لامبالاة متزايدة بالعلوم المجردة، ففي هذا المجال نجد في فرنسا نفس التطور الذي عرفته ألمانيا بعد حرب 1870 .

إن هذا لإهمال للعلوم الإنسانية يمكن أن يظهر إلى حد ما مفاجئا، ما دام المجتمع البورجوازي في حاجة في هذا الميدان إلى مثقفين، يشكلون نوعا من فرقة حماية علمية موجهة إلى الدفاع عن نظامها ودولتها، لكن البورجوازية تحس بأن سيطرتها التطبيقية، قد تزعزعت لحد أنه في الوقت الراهن ، أصبحت تضع ثقتها في سياسات العصا والرشاشات أكثر مما تضعها في خدمات الأساتذة .

رغم التطور المدهش في هذا المجال الخاص أو ذاك، فإن الحضارة البورجوازية عاجزة حاليا على أن تجمع في تركيب عضوي إنجازات العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية لتستخرج منها تصورا للعالم مرتبطا بالحياة التي تتحول إلى طاقة اجتماعية .

عندما يجازف العلم بنظرة تتجاوز الحواجز الضيقة للبحث المتخصص، فهو يجد نفسه مرتعبا من ألا يجد سوى الفراغ، ولا يجد من مخرج سوى التشبث بنسبوية منقادة أو وقحة، أو يغامر كذلك فوق الرمال المتحركة للصوفية.

6. ألفونس أولارد (Alphonse Aulard) (1849 – 1928)، مؤرخ ، مختص في الثورة الفرنسية، نشر كتاب "التاريخ السياسي للثورة الفرنسية سنة 1901 ، آشيل لوشير (Achile Luchoire) (1846 – 1908) مؤرخ، مختص في العصور الوسطى.

عندما كانت البورجوازية طبقة ثورية في أوج تطورها، كانت تبحث عن سر وجودها التاريخي، في تصور كلي للعالم داخل فلسفة كبيرة، أما حالياً فالعلم البورجوازي عاجز عن تطوير فكر فلسفي، فما يقدمه ليس سوى تقليداً بارداً للأنظمة الفلسفية الكلاسيكية، انتقائية، مكونة من قطع وأجزاء، بدون حماسة ولا عظمة، فلسفة الصالونات ونمط أدبي للمقلدين لمن هم أرقى منهم .

لم يعد للبورجوازية تصور متجانس وكلي للعالم، يسمح لها أن تثبت أمام نفسها – ولا نتحدث هنا عن البروليتاريا – موقعها كطبقة مسيطرة، ومرشداً نحو حضارة أكثر تقدماً، لم يعد للبورجوازية أي إيمان وفقدت الحق في المعرفة، لأن هذه المعرفة ستكون ساحقة جداً بالنسبة لها، حتى أنها لن تتمكن من تحمل رؤية وجهها الحقيقي في المرأة من بعض الفلسفات كيفما كانت، فهي تعوض الفلسفة القديمة بدين بديل، كاركاتور من الإيديولوجيات تستعيرها من حضارات لم يعد لها وجود أو محكوم عليها بالاختفاء .

إن الذين يشعرون بانحطاط الثقافة البورجوازية ونتائجها بشكل أقوى هم المثقفون، فما دام أن لا شيء يشكل لديهم محرّضاً على التفكير والأمل والفعل فهم يلتجئون إلى الأعماق المظلمة للماضي والصوفية والبوذية الخ ... يلتجئون إلى ظليل هذه المناطق المتاخمة للشعور واللاشعور، الأحاسيس والمعرفة، الحلم واليقظة، العلم والدجل كالتيوصوفية* والأرواحية الخ ... أو يعبرون عن رفضهم للحضارة البورجوازية، بتشكيل مستعمرات في البادية أو على جزيرة⁷، تشبه شيعاً بهذا القدر أو ذاك .

7 . إشارة محتملة إلى نوع من الفلانستر (phalenstère) (تجمع إنتاجي دعا إلى إقامته الفيلسوف الاشتراكي الفرنسي الطوباوي فوريي) (من شرح المترجمة) الذي شكله غداة الحرب في ووريسويد (Worpswede) غير بعيد عن بريم (Brême) بعض الرسامين والكتاب الألمان، أ. فوجلير (A. Vogeler)، فردريك وولف (Friederich Wolf) الخ ..

فن مزيف يصبح تجارة

لقد خضع الفن لنفس التطور، فلم يعد تعبيراً عن مشاعر كبيرة على المستوى الفني أو تجارب جماعية كبيرة، أي انه لم يعد أداة فعالة لتربية الشعب، بل أصبح تجارة ومقاولة رأسمالية يجب ان تعود بفوائد ضخمة . فالرسام والمصور عليهما أن ينتجا حسب الطلب ، والشاعر والكاتب عليهما أن يأخذا السوق وزبائن الناشرين الاعتبار، وتتم الأمور بهذا الشكل في جميع ميادين الإبداع الفني .

إننا أمام ميلاد فن مزيف أصبح مقاولة رأسمالية مربحة، ويعمل المجتمع البورجوازي على خلق منتجي هذا الفن المزيف، فهو يجلب العاجزين بإغرائهم بموقع ذي امتياز لعدد قليل من الأشخاص، وفي البحث عن الربح تنبثق معاهد التكوين الفني تكون أبوابها مفتوحة أمام الجميع، سواء كان عندهم موهبة في الفن أو لم تكن لهم، فبالجوع يرغم المبدعين الموهوبين على أن يكونوا في خدمة الذوق السيء والبوار، لكنه يولد في آن واحد مشترون لهذا الفن المزيف في شخص أناس حديثي نعمة قرفين وطالبي متع ، بينما يطور من جهة أخرى غياب الثقافة عند جماهير واسعة، إنه ينتج المستغل الرأسمالي الذي يسرق الفنانين أو الذين يدعون ذلك كما يسرق المستهلكين في نفس الوقت .

إن الفن المزيف الأكثر جلباً للربح في جميع البلدان الرأسمالية هو البورنوغرافيا سواء كانت مرسومة أو مصورة أو منحوتة، منطوقة أو مغناة . إن الرأسمالي يستغل الفنان والبروليتاري، بنفس الغياب للضمير، ويبيع قيمة فنية مزيفة بنفس الابتسامة الوقحة لبائع المواد الغذائية الذي "دس" لزبائنه مادة بديلة بدون قيمة غذائية بل مادة مؤذية .

ها هو مثال نبين لكم من خلاله إلى أي حد أصبح للفن روابط قليلة مع الحياة ومشاعر الجماعة ، فالحرب كانت تجربة مرعبة، الأسوء بالنسبة لأغلبية الناس، والحال أنه لم تقدم هذه التجربة في أي مجال فني وفي أي من البلدان ولادة عمل يمكن نعتة بأنه صرح أو معلمة، أجل إن رواية "النار" لصاحبها باربوسي مؤثرة، ومسرحية "الليل" لمارتيني كذلك، لكن لا هذا ولا ذاك من هذه الأعمال الأدبية قارب بشكل حي وبكل رعبها المعنى والعبثية التاريخية لأعمال الإبادة الجماعية الي قامت بها الامبريالية، وثيقة واحدة تملك العظمة الحقيقية على صعيد التاريخ العالمي،

لكنها ليست من ميدان الفن ولا من ميدان العلم، إنها سياسية، أي الثورة البروليتارية الروسية، إنها عمل جماعي لملايين الناس، إنها تعبر عن رغبتهم في الحرية والثقافة، إنها مملوءة بإيمانهم بالمثل الشيوعية، لذلك، فهي في هذه الأيام السوداء تحمل وعدا بمستقبل مشرق .

كما هو الحال بالنسبة للبورجوازية التي لم تعد لها إيديولوجية مرشدة، فإن فن المجتمع البورجوازي لا يمكنه أن يكون مصدرا للحياة والطاقة . إن الفنانين يبحثون بكل حرارة عن تعويض غياب فكرة عظيمة بأشكال وأساليب جديدة، لكن لا يكفي أن يكون لنا فكريا ثاقبا لإبداع الأشكال القادرة على ربط الفن بالجماهير وبمجموع العمال . إن الأشكال الفنية الجديدة والمقنعة تولد من الأفكار الجديدة، فكل هذه المحاولات لتلمس والبحث عن أشكال وأساليب جديدة هي التي قادت إلى انحلال وتفكك الفن البورجوازي، وهذا ليس إلا انعكاسا لتعفن الإيديولوجيا والثقافة البورجوازيتين، أشكال وأساليب تتوالى حسب الموضة، فلا شيء مرض، فالعمل الفني غائب ويفتقر للمحتوى الذي يجعل منه حدثا فنيا . إن الفنانين يحسون بأن الجماهير ترفض فن الفترة السابقة، إنهم يبذلون قصارى جهودهم لإقامة رباط عضوي بين الفن والحياة . من أجل الوصول إلى ذلك فهم يلجأون داخل "المستقبلية" و"التعبيرية" الخ ... إلى أشكال من الماضي، متناسين أنها كانت رموزا أو وسائل تعبير عن إيديولوجيا قديمة وذات خاصية سحرية، تشكل رابطا بين الجماعات وحيث كان معناها في متناول الجميع، لكن في عصرنا هذا المتسم بالفردانية فهذه الأشكال ليست مفهومة، ولا مفر في أنها أيضا تفصل أكثر بين الفن و الجمهور، فهذا الأخير يحس بها كصبيانيات وتعيرا عن مزاج الفنان وعجزه .

صراع المثقف ضد منافسة النساء وتحرهن

المدرسة البورجوازية، مدرسة للترويض وليست للتربية

هناك ميدان يعكس انحطاط الثقافة البورجوازية فهو ميزة خاصة للحالة الراهنة، إنه الميدان الذي يجب أن يعمل فيه التركيب لاكتشافات العلم والتقنية والفن، وباختصار الثقافة في مجموعها، لكي تنقل إلى الجميع، إنه ميدان التربية.

إن البيداغوجيا باعتبارها علما قد عرفت تقدما واسعا، فهي تستند على الاكتشافات الأساسية للعلوم الطبيعية والإنسانية، وتعرف إلى أي درجة يمكن للفن أن يساعدها في تربية الناس.

إن النظام البورجوازي معادي لكل وضع من شأنه أن يعمل على تطبيق بيداغوجية أساسية جديدة، بالنسبة للنظام البورجوازي فالتربية موضوعة تحت شعار الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية، وهدفها ليس تكوين الناس، بل ترويض مواطني مختلف الطبقات الاجتماعية. إن التربية الشعبية هي مرادف لتربية الفقراء، والمدرسة موجهة للترويض وليس للتربية.

إن التنظيم المدرسي والتكوين ومكافأة المعلمين ووسائل التعليم، كل ذلك يحمل بصمة الصراع العدائي الطبقي، وكل ذلك يرهن المستقبل بشكل خطير. إن التربية لا تساهم في تفتح المؤهلات الطبيعية، بل تمارس العنف ضدها، فهي تترك القدرات الفكرية الهائلة للشباب غير مشغلة، إنها تدمر ثروة ثقافية لا تقدر بثمن.

إن القصور والجريمة في الميدان المدرسي يجدان نفسها فيما يسمى بالتربية الشعبية، سواء كانت منظمة وممولة من طرف الدولة البورجوازية، أو كانت من عمل "أناس ذوي نيات حسنة"، الذين يتخيلون أنه مع بعض نتف لثقافة بورجوازية يمكنهم ملأ الهوة التي تفصل

بين الطبقات، وتجرب ذلك العمال خارج ساحة المعركة الكبرى للصراع الطبقي الثوري، للعمل على إدخالهم إلى حديقة متواضعة لثقافة القساوسة ومعلمي المدرسة . إن انحطاط التربية الشعبية يفضي إلى رشوة الصحافة الرأسمالية، التي تعد واحدة من العلامات المنفرة لتعفن الثقافة البورجوازية.

التحالف بين المثقفين والبروليتاريا الثورية

لقد فقد المجتمع البورجوازي كل حق في الوجود، فهذا هو المعنى التاريخي للظروف التي قمت بعرض خطوطها العامة ، فيإنكار الحق في الحياة لعشرات الآلاف من العاملين في المجال الفكري، فهو ينكر دورهم المتمثل في الإعلاء من شأن الحياة الثقافية، وتحقيق التقدم الاجتماعي وحمائته، فها هي ذي الأكذوبة الكبرى للمجتمع البورجوازي والمثقفين، عندما يؤكدون أن العلم والفن، والثقافة في مجموعها، تجد في حد ذاتها غايتها الخاصة . إن المجتمع البورجوازي في حاجة إلى هذا الكذب ليخفي عن نفسه هو أيضا بشاعة واقعه نتيجة بحثه عن الربح، لكن المثقفين أيضا في حاجة لهذا الكذب لنسيان التناقضات الصارخة لوجودهم : طبعاً تناقض بين رغباتهم ومعارفهم وقدراتهم ووضعتهم البئيسة واستلابهم، ولكنه تناقض ضخم وليس أقل خطراً من جهة، بين المثال والنشاط المهني، ومن جهة أخرى، بين غائية عملهم ونتائجه، بالمقارنة مع الإمكانيات والضرورات الاجتماعية.

يمكن أن نعتقد أن العاملين في مجال الفكر يستخرجون من هذا الوضع الخلاصات التي تفرض نفسها، والقوة للنضال بحماس ضد المجتمع البورجوازي، بحيث أنه بمساعدتهم على تحرير العمل الفكري والعمل بصفة عامة من سلاسل الرأسمالية، يتخلصون هم أيضا من آلامهم الجسدية والمعنوية، والحال أننا نجد ظاهرة معكوسة، فالمثقفون لا يريدون فهم ما سيشكل بداية تحررهم، بل يرفضون بدون استثناء هذه الخلاصات، ويمتنعون عن تقدير بشكل صحيح المهمة الثورية للبروليتاريا، التي يجب أن يناضلوا إلى جانبها، فموقفهم تجاه البروليتاريا غامض كما هو غامض وضعهم الاجتماعي، فأولئك الذين يوجدون في أعلى السلم يلعبون دور الأسياد، ويلقون نظرة متعجرفة على قطاع البروليتاريا البئيس والمستغل، فليس لهم إلا الحقد تجاه البروليتاريا الثائرة، هذا العدو وهذا "المتوحش" الذي تهدد "قبضته العنيفة" تدمير العلم والفن.

بدأت فئة واسعة من العاملين في المجال الفكري، والذين ما زالوا راهنا، يعيشون كبورجوازية متوسطة وبورجوازية صغيرة، ويسقطون الآن في هاوية وجود بروليتاري يشكون في وجود علاقة بين استعبادهم وبين قوة الملاكين، وأن مصالحهم ومصالح البورجوازية الكبيرة المستغلة غير متلائمة، لكن مع تردد قوي، وعلى الرغم منهم، تمكنوا من الوصول إلى هذه الخلاصات.

كثيرون جدا أولئك، الذين ما زالوا من بينهم يغذون ذلك الوهم في أن يكونوا شريحة على حدة، مميزة وليس لها قاسم مشترك مع البروليتاريا، مع أنهم ما زالوا مقسمين وممزقين داخليا، فالمثقفون المنتمون إلى الفئة الوسطى مدفوعون أكثر فأكثر نحو معسكر الثورة و ما من شك أنهم يتخلفون أكثر من مرة عن صفوف المقاومين، ومع ذلك لا يجب الاستهانة بهم ورفض التحالف معهم.

إن علاقات البروليتاريا بالثقفيين ليست بدورها متجانسة، فالبروليتاري يكره المثقف في المعمل، لأن هذا الأخير مكلف بقيادته ومراقبته وتحديد الإيقاعات، يكرهه داخل الدولة لأنه دركي، متسلط أو قاضي، ومن جهة أخرى فهو معجب بتفوقه الفكري، ومعرفته و سلاسته في الكلام وأساليبه "الجميلة"، و في آن واحد يحدث أحيانا أن يحتقر البروليتاري المثقف، لأنه إنسان يستطيع بفضل معرفته وقدراته، مقاومة الرأسمالي والانتصار عليه، لكنه يتخلى عن النضال نظرا لجبنه وغروره.

إن موقف الأهمية الشيوعية تجاه المثقفين الذين يعانون، هو موقف "خطيب شعبي كبير"، الذي، نظرا لوفائه ورباطة جأشه ضد البورجوازية الكبيرة يدافع عن جميع الفئات المستغلة والمضطهدة، وفي المقابل فهي تعرف بالأهمية التي يمكن أن تكون للمثقفين كحلفاء للبروليتاريا في الصراع من أجل السلطة، هذه الأهمية التي لا يجب علاوة على ذلك إعطاؤها أكثر من حجمها.

إذا أخذنا بعين الاعتبار علم النفس والوضع الطبقي للمثقفين، نعرف أنهم في مجموعهم لن يكونوا أبطالاً و قوات نخبة الثورة، كما كان المثقفون بالنسبة للبورجوازية، فلن يشكلوا أبدا طليعة الجماهير العمالية، ومع ذلك لا يمكننا الاستهانة بتحالفهم، فمن الممكن أن يكونوا مفيدين لنا، ليس فقط بسبب عددهم، ولكن بالأساس بسبب التأثير العظيم الذي يمارسونه على فئات واسعة من غير البروليتاريين، وبشكل

خاص، الفلاحون والبورجوازية الصغيرة المدنية ... يمكنهم أن يشكلوا أهمية في النضال الثوري، بسبب الوظائف التي يحتلونها في الإنتاج والدولة.

أن ترتبط جماهير واسعة من المثقفين بنا في النضال من أجل السلطة وتنظيمات الثورة المضادة مثل "تيكنيشي نوثلف" Technisch Nothilfe⁸ ... الخ سيكون أمرا مستحيلا، أن تكون هذه الجماهير مقتنعة بهزيمة البورجوازية والسيطرة على السلطة السياسية وبناء دكتاتورية البروليتاريا، تعد بالنسبة لها مرادفا للتحرر، وكل جهاز السلطة الموجه ضد البروليتاريا قد اختنق . إن المثقفين يمكنهم أن يلعبوا دورا ذا أولوية في تفسخ الدولة الرأسمالية . نحن الشيوعيين علينا أن نوجه أنظارنا إلى ما بعد الحاضر الراهن، في حليف اليوم من أجل الاستيلاء على السلطة، يجب أن نكون قد اعترفنا وحاولنا استمالة حليف الغد المحتمل، لأنه سيكون إذن من الأهمية بمكان كبير، المحافظة على الإنتاج وتطويره حين يكون العلماء والتقنيون متوفرين بالعدد الكافي، فهذا ما علمتنا إياه الثورة الروسية، لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار عاملا آخر أكثر أهمية أيضا، فعندما سنستولي على السلطة، لا يكفي أن نحافظ على الإنتاج الحالي، بل يجب تحويله في اتجاه الشيوعية، لكن كلما استمرت البقايا الرأسمالية تحت سلطة دكتاتورية البروليتاريا، كلما أصبح هذا التحول صعبا، فهذا التحول لا يمكن أن يكون إلا بقدر ما أولئك الذين تكلفوا بذلك تمكنت منهم الروح الشيوعية.

سيكون للاقتصاد هدف آخر ومحتوى آخر إذا لم يحركه الربح الرأسمالي، بل يحركه تلبية الحاجات في الروح الشيوعية .

8 . تنظيم ضد الإضراب تأسس سنة 1919 في ألمانيا جند من بين الشباب مهندسين وتقنيين متطوعين قادرين على تشغيل القطاعات الحيوية للمصالح العمومية مثل الماء والكهرباء والهاتف والاتصالات الخ.

على المثقفين الشيوعيين تأسيس بنية فوقية جديدة

يبين هذا إلى أي حد تعتبر الأفكار الشيوعية هامة و فاصلة، لأنه فقط التصور الشيوعي للعالم الذي يمكنه أن يوفر قاعدة صحيحة من أجل تحويل الاقتصاد.

رغم التنازلات التي يمكن القيام بها للرأسمالية التي ما زالت في مكانها، فالأهم سيكون الإبقاء على مسار الهدف العظيم للشيوعية. إن المثقف المستعد لدعم البروليتاريا في عملها للبناء والتحول في مرحلة الانتقال، سيكون أمرا ثمينا في البلدان التي تعاني من غياب نسبي للثروات الطبيعية كألمانيا مثلا، أو أيضا في البلدان الزراعية التي تعاني في غالبها من الجمود ومعزولة من طرف جيرانها الرأسماليين.

لكن المشكل الذي يشغلنا هو بعيد المدى، فلا يقصد بالشيوعية فقط خلق إنتاج جديد، بل إنها تريد أن تبني على أساسها بنية فوقية إيديولوجية جديدة. فبتحويل العلاقات بين الناس داخل الإنتاج، عليها أيضا أن تعمل على تغييرها جوهريا في مجموع البنية الفوقية الإيديولوجية، ويعني هذا، أن جميع العقلية والعلاقات بين الأشخاص يجب تغييرها، وأن تظهر الروح الشيوعية في الإيديولوجيا كلها، لكن هذه المهمة تثير المشكل الذي سبق أن تكلمت عنه قبل قليل، والذي يهتم العلاقة بين القوى الأساسية للتطور التاريخي والتبادلات بين البنية الفوقية وعلاقات الإنتاج. هذه البنية الفوقية التي لا يمكن أن تبتى في اتجاه الشيوعية إلا بقدر ما تصبح مشكلة من تصور جديد للعالم ومحددة بشكل واضح.

لنتخيل أن إنتاجا انتقل من الرأسمالية إلى الشيوعية قد أحدث بشكل أوتوماتيكي تصورا جديدا للعالم والبنية الفوقية الإيديولوجية التي تلائمها لا علاقة لها بالماركسية، فسوف يكون هناك تفاعل. إن التطور نحو الشيوعية في البنية الفوقية للمجتمع، وفي مجموع ثقافة شيوعية جديدة، لن يتم بتتابع ميكانيكي، أي الإنتاج أولا والإيديولوجيا ثانيا، ولكن بتزامن حي تام وفي تفاعل دائم بين الإنتاج وعالم الأفكار.

إن البروليتاريا التي تحارب تحت راية الماركسية، قد أدركت ذلك، وجعلت منها الخط التوجيهي لعملها في ميدان تنظيم سلطة الدولة والقانون، بقدر ما يجد الإنتاج في هذا الميدان تعبيره ودعمه. على هذا الصعيد، فالتعبير النظري والعملية الأكثر تمفصلا، الذي نتوفر عليه لحد الآن في الخط الفكري لماركس وانجلز، هو نظرية الدولة للينين ونظام السوفييات. لكن رغم أن المادية التاريخية لماركس وانجلز، قد وفرت لنا الأسس، التي تسمح بنقل النضال من أجل مفهوم جديد للعالم إلى باقي المجالات فإننا لم نقم به بعد، والحالة أنه يعتبر ضرورة.

أجل، لا أحد ينكر ان انحلال الإيديولوجيا البورجوازية يترجم انحلال الإنتاج الرأسمالي، ولا أحد ينكر أيضا، أن الأفكار الجديدة لا تتطور إلا على قاعدة إنتاج متحول بالكامل، لكن انحلال الإيديولوجيا البورجوازية وتعويضها بمفهوم شيوعي للعالم، لا يمكن أن يحدث إلا على مستوى البنية الفوقية الموجودة، ولا يمكن للمفهوم الجديد للعالم أن يلعب دورا فاعلا وخلاقا ضمن البنية الفوقية الإيديولوجية، ولا يمكن أن تتطور وتصبح مسيطرة وتعوض الإيديولوجيا البورجوازية، إلا داخل صراع بلا هوادة ضد هذه الإيديولوجيا، ومن هنا الأهمية الكبرى التي يجب منحها لتطور وفعالية الإيديولوجية الثورية بعد الاستيلاء على السلطة.

يجب على المثقفين الشيوعيين فتح نقاش مع الإيديولوجيا البورجوازية

على الأهمية الثالثة في هذا الميدان، إنجاز مهمة أهملتها الأهمية الثانية على نحو بئيس، فهذه الأخيرة بالفعل رفضت فتح نقاش إيديولوجي على نطاق واسع مع الإيديولوجية البورجوازية، فقد اعتبرت قطاعات واسعة من الحياة الثقافية محايدة، لقد تخلت بالأخص عن النقاش حول الدين، معلنة أن هذا الأخير مسألة خاصة. فماذا كانت نتيجة هذا الموقف ؟

لقد تخيلت الأممية الثانية أن تحطيم الإنتاج الرأسمالي، وإقامة نمط إنتاج شيوعي يولد حتما وبشكل أوتوماتيكي بنية فوقية شيوعية وإيديولوجية شيوعية متطورة تماما. لقد ظنت أن ثقافة وإيديولوجية جديدتين ستسقط عليها من السماء ذات يوم مثل فاكهة ناضجة. لقد تخلت عن المساهمة في إنضاج الناس، الذين كان يجب أن يقطفوا هذه الفواكه، لقد تخلت عن تسريع السيرورة التاريخية بتطوير الإيديولوجية.

وجدت الإيديولوجية البورجوازية ملاذات متعددة في الصفوف الخاصة للأممية، لتبقى الإيديولوجية السائدة، نازعة بذلك، من القسم الأكبر من المنتسبين للاشتراكيات الديموقراطية، القوة الداخلية والمعارف النظرية التي يمكنها، ويجب عليها أن تتحول إلى قوة ثورية وإلى نشاط ثوري. بالإضافة إلى ذلك حرمت الأممية الثانية نفسها من قوة الجذب التي كان من الممكن أن تمارسها على الفئات المثقفة، حيث وضعت مصالحهم المهنية أو الفكرية في تعارض مع الإيديولوجية البورجوازية. لقد منعت الاشتراكية كمفهوم للعالم والمجتمع، أن تصبح قوة خلاقية في حياة الأشخاص والجمهير أي طاقة اجتماعية "تغير العالم".

لقد شكل سقوط الأممية الثانية في بداية الحرب استسلاما جليا للإيديولوجية الاشتراكية أمام الإيديولوجية البورجوازية، وإن تاريخ الإصلاحية منذ هذا الحين جاء بكل بساطة ليؤكد أن الأممية الثانية تنازلت تماما، على أن تتجاوز الإيديولوجية البورجوازية وتعوضها بالإيديولوجية الثورية للبروليتاريا.

تعليم مبادئ الشيوعية للعاملين في مجال الفكر

إنه هنا حيث يجب أن تتدخل بكل وضوح الأممية الشيوعية، فليس من حقها أن تقف كمجرد متفرج أمام أزمة الحياة الفكرية للثقافة البورجوازية، عليها أن تعطي لهذه الأزمة محتواها الإيجابي، ففي وجه السيرورة الفوضوية والعمياء لتحطم وتعفن الثقافة البورجوازية، يجب

خوض صراع نشيط وواعي من أجل نشر المفهوم الثوري للبروليتاريا. هذه المهمة تسلط الضوء على أنه كم هو مهم أن يكون لك مثقفون كحلفاء، إذ يمكنهم أن يكونوا ثمينين، عندما يتعلق الأمر بالانتصار على الإيديولوجية البورجوازية واستبدالها بالأفكار الشيوعية.

هذه القناعة يجب أن تدفعنا إلى إيجاد حلفائنا في النضال من أجل الثورة البروليتارية، لكن للوصول إلى ذلك، يجب علينا محاربة، بكل ما أوتينا من قوة، إيديولوجيتهم البورجوازية، وإنه لمن الأولوية أن نبدأ بتعليم العاملين في مجال الفكر مبادئ الشيوعية، يعني الشيوعية كمفهوم عام للعالم بدون أقل تنازل لأي إيديولوجية بورجوازية. علينا أن نبين لهم، في نفس الوقت، الشيوعية كإيديولوجية النضال الثوري للبروليتاريا، في كل صلابتها وعنادها مع الأهداف المحددة، وكنظرية خلاقة وبناءة، يجب أن نفهمهم أن الشيوعية يجب أن تحطم لكي تستطيع أن تبني، يجب أن ندفعهم إلى الوعي بأن الشيوعية وحدها من يدافع عن مصالح المثقفين والثقافة، بإزالة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وتحطيم السيطرة الطبقية للبورجوازية، لكن يجب أيضا عرض تفهمنا لصعوبات المثقفين، وأن نكون الأمناء المدافعين عن هؤلاء، وعلى مطالبهم التي تمشي في اتجاه التطور التاريخي. عندما نفعل ذلك، يجب أن نبين بدون أي لبس، أنه في الوضع الحالي للصراع بين مصالح الانتلجانسيا ومصالح البورجوازية الكبيرة، لا يمكن النظر في الإصلاحات العميقة التي تلتف البؤس الراهن، ولا بالأحرى حل أزمة الثقافة في إطار الرأسمالية، ومع ذلك فعلى شيوعيينا التخلي بكل حزم عن كل سياسة طائفية أو نخبوية لصالح مثقفين (إقصاء النساء الخ...)، فمثل هذه السياسة ستكون في تناقض تام مع العقلية الشيوعية التي هدفها تحطيم الطوائف الاجتماعية والطبقات.

من أجل عملنا الدعائي بجانب المثقفين، يجب أن نستعمل كل العداوات الطباقية الموجودة بينهم، الانطلاق من موقفهم القومي، بتعميقه وبالتوضيح لهم، أن البروليتاريا الثورية اليوم، هي الطبقة الوحيدة الموحدة بشكل تضامني دقيق في جميع أنحاء العالم، القادرة على تطبيق سياسة وطنية فعلية، يجب أن نشرح للمثقفين لماذا لا يمكن حل المسألة القومية إلا في سياق صراع الطبقات الثوري الأممي، وعندما تتشكل البروليتاريا كأمة بالاستيلاء على السلطة وإقامة دكتاتوريتها.

دور المثقفين ودور الحزب الشيوعي

إن الموقف الأساسي للأحزاب الشيوعية إزاء المثقفين، باعتبارهم فئة، يقوم على هذه القاعدة. إن عمل الشيوعيين وسط العمال في مجال الفكر، يجب أن يقف عند ربح رفاق للنضال من أجل الأعمال السياسية الكبرى، وبطبيعة الحال، حلفاء من أجل فعل وحدوي. يجب بأي ثمن منع الأحزاب من أن يتم اكتساحها من طرف المثقفين، لكن بالنسبة لهذه النقطة، فليس هناك شيء يمكن الخشية منه، إذ أن تدفقا ضخما للمثقفين داخل الأحزاب الشيوعية سيزيف طابعها كليا ويعزز ويقوي الاتجاهات نحو التبرجس ونحو الانتهازية. هل يعني هذا أن أحزابنا يجب أن تغلق أمام المثقفين؟ أبدا! لكن فقط في وجه أولئك الذين قدموا البراهين، من يجب أن يقبل، ويجب أن نكون متأكدين أنهم فعليا نزعوا الحواجز التي توجد في عقولهم وتفصلهم عن البروليتاريا.

هذا يفترض، ليس فقط أنهم يعترفون ويحسون بألم البروليتاريا حاليا، لكن أن يروا فيها في ظل الأفق التاريخي بطلا ومناضلا ثوريا، منتصرا على العالم القديم ومشيدا لعالم جديد. إذا كان الأمر كذلك، يمكن أن نكون متأكدين أنهم سيساهمون في كل نضالات البروليتاريا، وأيضا في كل الهزائم التي لا يمكن تجنبها وذلك مع وفاء راسخ. لن نداهن المثقفين الذين ينخرطون في الحزب الشيوعي، لن نشهد لهم بإعجاب أعمى، لكن لن نطبق أيضا سياسة الأيدي الخشنة ضدهم، وما هو صالح لسلوكنا قبل الاستيلاء على السلطة، صالح أيضا في الفترة التي ستليه.

خلال الصراع من أجل السلطة ستكون لنا عدة مناسبات لنلاحظ أن المثقفين هم بصفة عامة حلفاء مترددون وغير موثوق بهم، سيحصل لهم في كثير من الأحيان أنهم يلتحقون بالمعسكر المضاد للثورة، إلى أن يصبح نضال البروليتاريا منتصرا وحاسما و بعد الاستيلاء على السلطة سيكونون "شيوعيين براغماتيين" و "ديموقراطيين مثاليين" الذين يريدون أن يظلوا "واقعيين". فكم من الوقت سيظل رفاقنا هؤلاء أوفياء؟ إنه سؤال آخر.

يجب أن نتوقع رؤية مثقفين قد تخلوا إذا السلطة البروليتارية بدت متذبذبة، ولا يجب الشعور باليأس، فخلال فترة الانتقال الصعبة، سنجد وسط المثقفين سياسيين واقعيين حقيرين، وفي بعض الأحيان سخيّين، أكثر منهم أبطال، ومع ذلك، ومهما كان الأمر أيها الرفاق، فليس مسموحاً لنا أن ننسى ما تدين به البروليتاريا الثورية للبعض منهم، بل وخلال الثورة سيتشكل فريق من المثقفين واع و و في، فهؤلاء يقدمون خدمات ثمينة للبروليتاريا، ليس فقط بالنضال والعمل إلى جانبها، رغم الأخطار والتضحيات، ولكن بأن يكونوا مثالا ومرشدا لجماعات متعددة من المثقفين، لهذا فليس ضرورياً أن هؤلاء الأخيرين ينخرطون بعدد كبير في الحزب، أولئك الذين من بينهم الذين يريدون خدمة البروليتاريا والمستقبل التاريخي، إذ يمكنهم أن يتجمعوا في جمعيات المتعاطفين، ويكون لهم داخلها نشاط اجتماعي (الإنقاذ العمالي، الإنقاذ الأحمر الدولي، أصدقاء روسيا الجديدة، مركز المعلومات حول العلوم والفن الروسي، اتحاد الكتاب البروليتاريين ألخ ...)

دور المثقفين في ظل الاشتراكية

لدينا القليل من السوابق التاريخية فيما يتعلق بالكيفية التي تنشأ بها العلاقات بين البروليتاريا الثورية والمثقفين بعد الاستيلاء على السلطة، فخلال جمهورية المجالس في ميونيخ، رأينا في البداية الكثير من المثقفين يتقدمون بشكل صاخب إلى الأمام ويزرعون الغموض، لكن بعد أن تم سحقها انسحب أغلبيتهم وذهبوا لحال سبيلهم، أو حتى انتقلوا الى صفوف العدو. لا ننسى، علاوة على ذلك، أن المثقفين المعروفين، الذين قدموا تضحيات كبيرة جدا يعيشون حاملين في الزناز⁹ أو في المنافي، أو ماتوا في المعركة، اثنان من بينهم قاوموا وماتوا من أجل جمهورية مجلس ميونيخ وهما: لاندوير Landauer الاشتراكي الثوري الطوباوي وليفيني Leviné الشيوعي الواعي.

9. كانت بالأخص حالة إرنست توللير Ernest Toller الذي حكم عليه بخمس سنوات في قلعة.

خلال 131 يوما من وجودها، استطاعت جمهورية المجالس الهنغارية¹⁰، أن تحسب كل مخاطر التحالف مع الأنتلجانسيا، والأزمة التي تألمت منها هذه الأخيرة يرجع أصلها الأساسي إلى "دكتات" (املاءات) دول الوفاق¹¹ التي أرجعت هنغاريا "إلى حدودها الوطنية الطبيعية" وشوهت الملكية بجد. في هنغاريا التي يحكمها آل هابسبورغ، اعتبرت الأرستقراطية الدولة ضيعتها، وأقامت فيها أبناءها "مثقفين" بهذا القدر أو ذاك. كان عدد المثقفين النبلاء في الوظيفة العمومية ضخما، وكان هؤلاء السادة ينتظرون دولة جديدة مقلصة المساحة يحافظون فيها على نفس القدم كالسابق، وعلى أساس هذه المشاكل، جاءت لتنظم الصراعات بين المثقفين النبلاء والمثقفين البورجوازيين، هؤلاء الأخيرين الذين أعلنوا عن ظهورهم في هنغاريا مع صعود الرأسمالية، فقد كانوا ضحايا الأزمة الاقتصادية التي تتزايد خطورتها يوما عن يوم. لقد بدأ المثقفون الهنغاريون يبتهلون إلى الله بكتا يديهم بأن يعملوا بكل ما أوتوا من قوة من أجل إرجاع آل هابسبورغ إلى الحكم، فبعد الثورة انضموا بسرعة إلى جمهورية كارولي¹² Mihaly Karolyi، وأخيرا، بعد إنشاء جمهورية المجالس انضموا إليها، وكان الشعور القومي محمدا في هذه المحاولة، لقد كانوا يأملون في أن النظام الجديد سينشئ هنغاريا بحدودها القديمة.

إنه من الأمر المميز أن يظهر أن جمهورية المجالس كلما استطاعت الاستمرار، كلما زاد عدد المرتبطين بها، والضباط من بينهم، وبعد سقوطها يصبحون المتهمين والقضاة والمعذبين الأكثر بشاعة والأكثر قساوة وأكثر المحرضين المحمومين ضد البروليتاريا الثورية، فمن صفوفهم خرج أعضاء جمعية "استيقظ أيها الهنغاري"¹³.

10. الجمهورية الهنغارية للمجالس التي أعلن عنها في 2 أبريل من طرف Bela Kun، وقد تم إسقاطها من طرف فرق الأميرال هورثي Horthy المضادة للثورة.
11. بمقتضى معاهدة تريانون الموقعة في 4 يونيو سنة 1920 تم تقليص مساحة هنغاريا وأصبحت تشمل وسط سهل بانونيين مما يعني تقليص مساحتها الترابية عن السابق ب الثلثين.
12. ميهاالي كارولي Mihaly Karolyi عين رئيسا للجمهورية الهنغارية في يناير 1919 بعد سقوط الملكية وعوضت حكومته بجمهورية المجالس.
13. يتعلق الأمر بالعديد من المنظمات الفاشية التي تأسست في هنغاريا في سنوات العشرينات.

لكن هناك أيضا، مثقفون على رأس جمهورية المجالس حملوا أعلام الجماهير العمالية والفلاحية المستعبدة والمستغلة، فقد قاوموا وعرفوا الجوع وأعطوا دماءهم وماتوا وتعرضوا للاغتيال والذبح من أجلها في ظروف فظيعة، وبعضهم ما زال في السجن أو في المنفى.

هؤلاء المثقفين قادة الجمهورية الهنغارية للمجالس، هم من بين أحسن الأبطال والأكثر وفاءا للثورة العالمية البروليتارية وللأممية الشيوعية.

إن موقف الأنتلجانسيا تحت حكم دكتاتورية البروليتاريا في الاتحاد السوفياتي، هو بطبيعة الحال مفيد وأكثر أهمية بكثير في روسيا السوفياتية ووجهت دكتاتورية البروليتاريا الضربة الأولى الحاسمة لتلك العقدة المستعصية، المتمثلة في مشكل المثقفين، لقد أنشأت نظام السوفياتات، وأعلنت عن الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، لقد خلصت إذن العمال بما فيهم المثقفين من نير الملاكين الرأسماليين، ووضعت المبدأ لاستقلالهم الاقتصادي ولحريتهم. لقد سقطت السلاسل التي كانت تكبل المثقفين والعمل الفكري نفسه في النظام البرجوازي، مع ذلك، فتاريخيا، فإن كل تحول جوهري يبدأ بفترة انتقال صعبة بآلامها وتنازلاتها وتضحياتها من أجل الجميع، وتشمل أيضا آلاما وتنازلات وتضحيات من أجل المثقفين. في أغلب الحالات فإن إيديولوجيتهم البورجوازية هي التي تنتصر، فهم لا يرون بشكل واضح ما أتت لهم به دكتاتورية البروليتاريا، لكنهم يتأسفون لكونهم فقدوا وضعا متميزا، والذي بالنسبة للكثيرين كان مع ذلك وهما أكثر منه حقيقة.

في روسيا القديمة، كان جزء من الأنتلجانسيا يتمتع فعلا ببعض الامتيازات بسبب الظروف الاجتماعية والثقافية التي نعرف، وهاته الأخيرة، كانت تسير على المستوى نفسه، مع خنق الحياة العامة والثقافية من طرف القيصرية، من رقابة وسجن ونفي إلى سيبيريا الخ... كانت مفاهيم ملازمة للعمل الفكري في جميع المجالات، كان أغلب المثقفين إذن معارضين، الشيء الذي يتضح كذلك من خلال أصولهم، فكثير منهم جاء بالفعل من البورجوازية الصغيرة والنبلاء الفقراء والفئة الدنيا من رجال الدين، فقد كانوا في مقدمة الصراع ضد القيصرية، وجعلوا أنفسهم أبطال الامبريالية لصالح البورجوازية الصاعدة، ولكن، فقد خرج أيضا من بين صفوفهم قادة الديموقراطية البورجوازية الصغيرة، وبعضهم رأى أبعد من ذلك، أي أبعد من الثورة البورجوازية، فهم يسعون إلى الثورة الاجتماعية، فالاشتراكيون الثوريون، المناشفة الخ... كانوا أنصار الثورة

الاجتماعية إلى غاية الوقت الذي أخذت فيه البروليتاريا، مدعمة بالفلاحين الفقراء بجدية الأمور بيدها، وقامت بالثورة، فالتحقوا هم أيضا بمعسكر الثورة المضادة مع أغلبية المثقفين البورجوازيين .

إن أغلب العاملين في المجال الفكري بدأوا في تخريب النظام السوفياتي في جميع المجالات، حيث كان عملهم فيها مهما، فهم الذين نقلوا الأكاذيب إلى الصحافة الأجنبية، والافتراءات الأكثر خبثا والأكثر حقارة ضد البلشفية. في روسيا نفسها، وفي البلدان الرأسمالية، صنعوا من أنفسهم عملاء وجواسيس الثورة المضادة. لقد رأت السلطة السوفياتية نفسها في الحاجة إلى أن تعاقب بقسوة، و ألا تترك نفسها تعميها الشعارات حول حرية الفن والعلم، أي حد الموافقة على الحرية السياسية لفعل كل شيء، الحرية التي يمكن أن تصبح حرية ارتكاب جرائم، لقد كانت في حالة الدفاع عن النفس، وكان عليها أن تتصرف بحزم وبدون ضعف.

على الحزب الشيوعي أن يكون مثقفين بروليتاريين

من البديهي أن الموقف العدائي للأنتلجانسيا غداة أخذ السلطة، قد أثر بقوة على مواقف البروليتاريا تجاهها. إن جماهير العمال والفلاحين ما زالت تغذي كراهية قديمة ضد "الرجال ذوي الأيدي البيضاء"، الذي يطابق المثقفين بملاكي الأراضي وبالبرجوازية، وقد كان تأجج هذه الكراهية بسبب موقف المثقفين المتردد والمعادي في بداية الثورة، وبسبب الخوف من أن يروهم يستفيدون من تفوقهم الفكري لكي يؤلفوا طائفة مهيمنة، لقد تكونت هذه الكراهية قديما، أوبالأحرى بشكل قوي، في روسيا، لأن مشكل الأنتلجانسيا مرتبط بدقة بالبيروقراطية، وبالموازاة مع ذلك يدخل واقع الأمية على الخط.

إنه لأمر مفهوم أن نجد قد تطورت لدى البروليتاريا تجاه الأنتلجانسيا مواقف تتجه نحو الابتعاد عن الخط الشيوعي الصحيح، وقد تكونت هذه المواقف عندما رأت في المثقفين صنفا مستقلا - إذا لم نقل في أدنى رتبة وخطيرا - الذي يجب إبعاده، في نفس الوقت، من دورات

التكوين ومن الحياة السياسية، فقد يحدث أن يتم منع المثقفين من ممارسة مهنتهم وطردهم من الحزب، ورفض دخول أبناءهم الجامعة فقط لأنهم كانوا مثقفين. أجل، لقد كانت حالات معزولة، لكن فقد كان لها معنى ...

إن هذا الموقف يتناقض مع السياسة العامة للسلطة السوفياتية تجاه المثقفين، فهذه الأخيرة لا تنوي عزلهم، بل بالعكس فهي تنوي إدخالهم في سيرورة بناء مجتمع جديد، بارتباط مع قدراتهم وتكوينهم. يضاف إلى هذا، لتفادي إمكانية تشكيلهم طبقة جديدة قائدة، فهي تسعى جاهدة لرفع المستوى الفكري للجماهير، وبالأساس تشجيع أنتلجانسيا بروليتارية، بأن تسهل لها إلى حد أقصى الولوج إلى دورات التكوين والتدريب المهني. أجل أنتلجانسيا مثل هذه، تتوفر على ثقافة عامة ومعارف مهنية ضرورية لا تنشأ بين عشية وضحاها، يمكننا أن نخاف من دراسات مكثفة مركزة في ربح قصير من الزمن - خاصة في ظروف الحياة الراهنة، ومع عبء العمل الذي يتطلبه الحزب - تؤدي إلى الإرهاق، مع خطر استنزاف وتدمير القوى الفكرية الثمينة للشباب البروليتاري قبل الأوان. إن السياسة التعليمية للحكومة السوفياتية تبحث عن تجنب هذه المخاطر وأخرى من نوع آخر، فهي بفتنتها تعرف أن الفصل بين البروليتاريا والمثقفين أمر معارض للشيوعية، فهذه الأخيرة ليس هدفها خلق طوائف جديدة، بل إزالة الطوائف والطبقات، وعلاوة على ذلك، فسياسيا، سيكون سجن المثقفين في غيتو، تم تحديثه، خطأ، من شأنه أن يعمل على تكوين مجموعة من الساخطين والمخربين وأعداء يشتغلون في الظل.

بصدد التقييم الاجتماعي ومكافأة العمل

إن إدماج الأنتلجنسيا في سيرورة بناء الشيوعية يطرح مشاكل خطيرة، مثل التقييم الاجتماعي ومكافأة العمل الفكري واليدوي. حسب التصور الشيوعي، فكل عمل إذا كان نافعا وضروريا للمجتمع، يمكن أن يطمح إلى نفس التقييم الاجتماعي، من وجهة النظر هذه، فإن التوازن بين مداخل المثقفين ومداخل البروليتاريا، يجب أن يكون الحصول عليه عن طريق زيادة سريعة وجوهرية للتقييم الاجتماعي للعمل اليدوي، لكن اقتصاد الانتقال هو اقتصاد تكشف يفرض حدودا ضيقة على العمال اليدويين والمثقفين على حد سواء.

وهؤلاء الأخيرين ساخطون على ذلك، فليس من النادر رؤية عامل في مجال الفكر لا يريد الاستفادة من النيب NEP، يتقاضى أقل بشكل طفيف من العامل المؤهل.

في نظري، فإن سياسة الدول السوفياتية، عليها أن يكون هدفها تأمين ظروف العيش لكل العمال، التي تسمح لهم بالحصول على الحد الأدنى من المردود في مهمتهم، في نفس الوقت فإن وضعية المثقفين لا يجب أن تتطور نحو وضع رجل النيب NEP بشكل يجرح فيه شعور البروليتاريا بالعدل والمساواة.

يجب إفهام المثقفين والبروليتاريين، أن تقييم عملهم في الظروف الحالية، ليس أبدا تعبيرا عن التقييم الاجتماعي له، إن أجرا متواضعا يمكن أن يتمشى جنبا إلى جنب مع أعلى التقدير الاجتماعي. باعتبار الوضعية التاريخية الحالية، بعظمتها وصعوباتها، فعلى البروليتاريون والمثقفين العدول عن تلبية عدد معين من الحاجيات، ليس فقط من طبيعة ثقافية، بل كذلك عن تلك التي تمثل حاجيات أولية. سيسهل عليهم ذلك التحمل، إذا هم فهموا أنهم هم من يخلق بسرعة الخيرات المادية والثقافية بالكمية الكافية، فبالتعاون بقوة وبإخلاص لبناء الإنتاج والحياة

الثقافية، سيكونون أسياذ مصيرهم، ضامنين للأجيال المقبلة حياة سعيدة ومريحة، وتصبح لهم القوة لرب المستقبل وتحمل الحاضر بفرح وافتخار.

الألوية للرفع من الثقافة العامة الشعبية

هناك مشكل يطرح، وهو ما يتعلق بالألويات: هل يجب إعطاء امتياز للتعليم الأولي العام، التكوين المهني، أو الفن، أو العلم. في نظري فإن سياسة الجمهوريات السوفياتية في هذا المجال صحيحة تماما، فهي تؤكد بوضوح على الرفع من الثقافة العامة الشعبية. إن تكوين و تثقيف الجماهير الواسعة جدا، يشكل القاعدة الأساسية للتكوين المهني، وهي أيضا ضمانة لأن يتم الانتقاء على مستوى التكوين المهني والدراسات العلمية والفنية، حسب معايير الكفاءات وليس حسب الأصل الاجتماعي أو أشياء أخرى، ولذلك أثر في إزالة مفاهيم "الناس المثقفين" أو "غير مثقفين" (بدون ثقافة) التي تفصل العاملين في مجال الفكر عن العمال اليدويين، وتسهل الانتقال من مهنة إلى أخرى، إنها تخلق القاعدة الأساسية لتطور العلوم والفنون، وهي أساسية لكي تصبح جماهير واسعة قادرة، في خطوة أولى، على فهمها وتقديرها، ثم في خطوة ثانية المساهمة في سيرورة عملية الإبداع.

لكن إذا أردنا حل مجموع المشاكل التي يطرحها التعليم الشعبي، وخلق ثقافة جديدة من مستوى عالي. لا يجب أن نهمل عاملا أساسيا، وهو التعليم عن طريق، ولصالح العمل الجماعي، فسيساهم بدرجة عالية في محو التعارض بين المثقفين والعمال اليدويين، سيعمل على إفهامهم اعتماد بعضهم على الآخر، وعليهم أن يتوحدوا من أجل تضامن غير قابل للتدمير، فسيسمح لهم بالانتقال من نشاط إلى آخر، وسيؤدي بهم إلى الشعور بتضامن المجتمع كله. مع الأسف فإن العديد من العقبات تعترض طريق التعليم بواسطة، ولصالح العمل الجماعي، كمنهج الحد الأقصى يسمح لكل واحد، بتطوير قدراته بتناغم، وممارستها في جميع المجالات، فهي مقبولة مبدئيا، لكن هناك نقص في الوسائل وفي الأدوات، وخاصة في المربين والمعلمين القادرين على تنفيذ المهمة على أحسن وجه، هذا بدون الحديث عن باقي الصعوبات.

ماركس وتكوين الإنسان الجديد

هذا الوضع يسلط الضوء على أي حد كان ماركس على حق، عندما قال في جداله مع **شتيرنر** Stirner¹⁴، أن تحقيق الشيوعية يتطلب عقوداً، إن الأمر لا يتعلق فقط، كما يقول، بخلق علاقات اجتماعية جديدة، ولكن أيضاً تكوين ناس جدد قادرين على إعطاء شكل لهذه العلاقات الجديدة، وقد أكد لينين مرارا ومرارا على هذه النقطة، فبالنسبة له، فإن تحقيق الشيوعية كان مرادفاً لتدخل نشيط وذاتي لجماهير منظمة، غير أنه، حتى تستطيع هذه الأخيرة التصرف هكذا، يجب أن تكون هناك سيرورة تطور، وتطور، نمو، تربية مخطط لها على المدى البعيد، وأيضاً تعليم ذاتي وانضباط ذاتي للجماهير.

إن أخذ الجماهير مسؤولية نفسها، بهدف تحقيق الشيوعية، ليس ممكناً إلا في إطار تعاون تام مخطط للمثقفين والعمال اليدويين، غير أن هذا التعاون يتطلب مناهج جديدة ما زالت لا توجد جاهزة بالكامل، ولكن، تماماً، ككل العلاقات وأنماط الحياة الجديدة، لا تتشكل إلا بالتدرج انطلاقاً من الممارسة، لذلك فمن الضروري وجوب توخي حذر شديد من كل هذا الانبثاق للأفكار المبتكرة في مجال أنماط الحياة، والمناهج الاجتماعية للعمل، وللتعليم والعلاقات الإنسانية الخ... ولهذا السبب أيضاً، من الضروري الحرص مع كثير من الصرامة والحزم، على أن القوى التي حررتها الثورة البروليتارية يتم تطويرها في اتجاه الشيوعية، وكان لينين يرغب في أن يتولى العمال اليدويون والمثقفون هذه المهمة، أناس إذا كانت لهم معارف ملموسة وتكوين نظري، يندرون أنفسهم جسداً وروحاً، لاتباع التطور الاجتماعي، ويدرسون بشكل معمق مجموعة المشاكل التي يطرحونها. إن اللجنة المركزية للمراقبة، عليها أن تشكل المحاولة الأولى لخلق تنظيم من هذا النوع، والتفتيش العمالي الفلاحي يجب أن يعمل في نفس هذا الاتجاه.

14. ماكس ستيرنر (1806- 1856) Max Stirner انظر "الإيديولوجية الألمانية" لكارل ماركس وفردريك انجلز.

الاشتراكية تمنح هدفا للأنتلجنسيا

يمكن لنا أن ننتظر تحقيق تعاون بين المثقفين والبروليتاريين الشيوعيين، بشكل أكثر سرعة في الاتحاد السوفياتي أكثر منه في بلدان أخرى بعد الثورة البروليتارية، وأن أزمة الأنتلجنسيا سيتم تجاوزها في أجل قصير نسبيا.

يمكن أن نلاحظ منذ الآن، أن عددا كبيرا من المثقفين تبنا موقفا داعما، حازما ومخلصا للنظام السوفياتي، وقرروا العزم على التعاون مع الحكومة، وإن ظرفا خاصا سيلعب في هذا الاتجاه. إن الإيديولوجيا البورجوازية لم يكن لها جدورا عميقة في روسيا القديمة، فلم تلعب أبدا نفس الدور القوي الموحد كما في الغرب الأوربي وفي الولايات المتحدة الأمريكية، ولهذا السبب كانت لمعارضة المثقفين خاصية اجتماعية واضحة، التي تعبر عن نفسها في الأدب، وخولت لها مكانة خاصة، مكانة الشرف التي تحتلها في الأدب العالمي.

ما الذي يعطي للنقد الواقعي والطبيعي للمجتمع أصالته، والذي نجده في الأدب الروسي؟ إنه الفكر الاجتماعي الذي تتجلى فيه هذه الحساسية ذات الطبيعة الاجتماعية، هذا التفكير، وهذه الإرادة في إظهاره، والتي أعطت لأعمال المثقفين الروس، تحت حكم القيصرية الكثير من القوة الثورية، وكان لهم تأثير معبئ ومغير، ففي أعمال تولستوي، رغم كل مظاهرها الرجعية، نجد التعبير الفني الأكثر رقا للفكر الاجتماعي والثوري للأدب الروسي لما قبل الحرب، وليس مستبعدا أن التقليد الاجتماعي للمثقفين ينتعش، وبمساعدهم والعمل البناء يتزايد، وستصبح أزمة الأنتلجنسيا متجاوزة.

هل يمكن أمام المشاكل المعقدة لأقصى حد، تبني الضرورة، والدور الحاسم لعلم ولثقافة ولفن بروليتاري بشكل خاص.

إنه مع الأسف بالنسبة لي، من المستحيل معالجة هذا المشكل هنا بصفة شاملة، لكن مع لينين وتروتسكي فإني أجيب عنها بالنفي، فالفن والثقافة ليسا كائنين اصطناعيين يقوم مختصون في الجماليات بصناعتها في قوارير حسب فورمولات حذقة وعالمة.

إن الحكومة السوفياتية تقدم الدليل على ما يمكن ان يتحقق تحت دكتاتورية البروليتاريا ضد أزمة الحياة الفكرية والثقافية، رغم صعوبات اقتصادية كبيرة. فإذا قارنا بين ميزانية التعليم والوسائل المتاحة في الاتحاد السوفياتي، وما هو متوفر في الدول الرأسمالية، فإننا نلاحظ أنه لا توجد أية دولة، بإمكانها التباهي والتظاهر، ومن بعيد، بالقلق تجاه الثقافة، أكثر من الجمهوريات السوفياتية. هذا يبين جيدا أنه تحت سلطة دكتاتورية البروليتاريا سيصبح كل من العلم، الفن والثقافة غايات اجتماعية، غايات في ذاتها، لم يعد من هدفها خدمة البحث عن الربح الرأسمالي، وهذا يفسر كل الإجراءات الهادفة إلى تأسيس بنية فوقية إيديولوجية جديدة: تمويل أسفار دراسية وتجارب علمية، ترقية مختلف التخصصات العلمية والفنون الخ ... وتحسين مجالات الصحة العمومية والقانون.

الاشتراكية تحقق التركيب العضوي بين العمل والعلم والفن

إننا نعلم أن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، يؤدي ثمنا غالبا جدا لنيل شرف ان تكون طليعة البروليتاريا الثورية العالمية، فالجماهير الكادحة، التي تحركها الرغبة الشديدة في بناء مجتمع جديد، يقوده الحزب الشيوعي، تحمل ثقلا هائلا من المسؤولية والهموم والآلام والحرمان والتضحيات، والمثل الأعلى الشيوعي العظيم يمنحها القوة، فبفضله تصبح الرغبة معرفة، وثقة وإرادة، ويولد قدرا هائلا من الطاقة الاجتماعية التي تستعمل في الدفاع وبناء الدولة السوفياتية. هنا فوق أرضها بدأ يتحقق ما لم يستطع المجتمع البورجوازي تحقيقه: إنه التركيب العضوي للعمل وللعلم وللفن في سيرورة اجتماعية حية ومتجانسة، حيث كل واحد يحس بالتضامن من الجميع، وحيث كل واحد، بالعمل على تلبية رغبات وعلى سعادة الفرد، فإنه يعمل أيضا على رضى وسعادة الجميع.

إن هذا التطور السريع سيحقق ما ميّزه ريشارد فاكنر Richard Wagner، كهدف للتطور التاريخي، حيث يقول: "إن هدف التاريخ هو الإنسان، القوي والجميل، وأن الثورة تمنحه القوة والفن والجمال"¹⁵.

15. ريشارد فاكنر Richard Wagner ، 'الفن والثورة'.

سيولد إنسان المستقبل هذا، الذي لا يحمل وصمات المثقف ولا وصمة البروليتاري، الذي لن تكون له كعلامة مميزة سوى إنسانية كاملة التطور و متفتحة، سواء على المستوى الجسدي أو الفكري. فلنسرع بمجيء هذا الإنسان، بتحقيق ما لم يكن عند ريشارد فاكنر سوى طموح لحظة: فلتسبق قوة الثورة، الجمال والفن، وتهيئ لها الطريق.

إنه من هذه الزاوية أيضا، يجب علينا النظر إلى أزمة الأنتلجنسيا والعمل الفكري. إن المحنة المؤلمة جدا، التي يعرفها المثقفون تفرض عليهم التحالف مع البروليتاريا الثورية، التي تصرخ فيهم: "يجب ذلك"، وهم مترددون، وبالرغم منهم يرددون: "يجب ذلك". نحن الشيوعيون، الذين يفهمون اتجاه السيرورة التاريخية، كنا قد حققنا في عقولنا هاته الحرية، التي وحده المجتمع الشيوعي من يمنحها للجميع: إنها إرادة كل ما هو ضروري، ولهذا السبب فنحن لا نستجيب لنداء زماننا عبر "نريد ذلك"، مترددة وغير مؤكدة، بل عن طريق "نريدها" مفرحة وحازمة.

جميلة صابر

2017 - 10 - 5